الْفَصْلُ الثَّانِي

حَرَكَتَا الْمَهْدِيِّ السُودَانِيِّ،
وَالْمَهْدِيِّ الْقَحْطَانِيِّ.

عَصْرُ المَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ

مُحَمَّد أَحْمَد بْن عَبْدِاللَّهِ

(١٢٥٩ هـ - ١٣٠٢ هـ) (١٨٤٤ م - ١٨٨٥ م).

وَضْعُ الخِلَافَةِ العُثْمَانِيَّةِ

وُلِدَ المهدي بعد خمس سنوات من تولي السلطان عبدالمجيد الأول بعد وفاة أبيه سنة (١٨٣٩ م)، ثم عاصر مدة خلافة أخيه السلطان عبدالعزيز، التي امتدت خمس عشرة سنة (من ١٨٦١ إلى ١٨٧٦)، ثم عُزِلَ بمؤامرة أوربية، ثم قُتِلَ، وتولى من بعده ابن أخيه مراد الخامس بن عبدالمجيد، الذي عُزِلَ بعد ثلاثة أشهر، وثلاثة أيام، وبُويِعَ بعده أخوه عبدالحميد الثاني سنة (١٨٧٦م)، الذي عاصر المهديُّ السوداني تسع سنوات من فترة خلافته.

إذن عاش المهدي عصر الانحطاط والتراجع الذي أعقب مرحلة ضعف الدولة العثمانية؛ حيث تراجعت قوة العثمانيين مقابل نهضة الأوربيين، واشتدت المواجهة بين «دار الإسلام»، و«دار الحرب»، بين الأتراك العثمانيين، وخَلْفهم العالم الإسلامي في مواجهة الكنيسة البابوية، وخلفها كل دول الغرب النصراني[١] .

● **أَمَّا عَنْ أَسْبَابِ وَمَظَاهِرِ هَذَا الضَّعْفِ وَالتَّرَاجُعِ[٢]:**

فَأَوَّلُهَا: الانحراف عن شريعة الله - تعالى -، وتحكيم القوانين الوضعية، واعتماد تقليد الغرب أسلوبًا لا بديل عنه من أجل تحديث الدولة.

ثَانِيًا: سيطرة العقلية العسكرية في إدارة أحوال الدولة، وصراع أبناء الأسرة العثمانية

---

(١) «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٥٩).

(٢) طالعها مفصلة إن شئت في «التاريخ الإسلامي»، للأستاذ محمود شاكر، (٨/١١١ - ١٢٥)؛ وانظر: «المختار المصون من أعلام القرون»، (٣/٢٠٣٧).

على السلطة.

ثَالِثًا: منح الحصانة والامتيازات للأجانب، حتى صاروا دولة داخل الدولة.

رَابِعًا: إهمال العلم والجمود على الأساليب التقليدية.

خَامِسًا: شيوع تزوج السلاطين من فتيات نصرانيات ويهوديات؛ مما ترتب عليه تدخلهن في سياسة الدولة.

سَادِسًا: اتساع رقعة دولة الخلافة حتى زادت على ستة عشر مليون كيلو متر مربع؛ (أي ضعف مساحة الولايات المتحدة الأمريكية).

سَابِعًا: شيوع الترف والبذخ والإسراف.

ثَامِنًا: الثورات الداخلية، وَتَمَرُّدُ الرعايا من النصارى وغيرهم، بفعل الروح الصليبية المعادية، التي تَشَبَّعَ بها الأوروبيون تجاه الدولة، مما أنهك كِيَانَهَا وَمَزَّقَهَا.

تَاسِعًا: انتشار الدعوة إلى العصبية القومية.

عَاشِرًا: نشاط الجمعيات السرية العاملة على الانفصال عن الدولة، وتأسيس الجمعيات ذات الأهداف السياسية، تحت ستار أسماء علمية وأدبية، وبخاصة في بيروت؛ حيث انتشرت الإرساليات النصرانية الموالية للغرب، وفي إستنبول حيث كان معظم أعضائها من الأتراك المفتونين بأوربة، الداعين إلى العصبية التركية، ومن أصحاب المصالح، واليهود الناقمين على الحكم والإسلام، وأشهرها: جمعية تركيا الفتاة التي رفعت لواء التغريب، ومنها تفرع الجناح العسكري الذي عُرف باسم «الاتحاد والترقي».

وَضْعُ الْإِمَارَاتِ السُّودَانِيَّةِ

يقع السودان ـ جُغْرَافِيًّا ـ في وسط البلاد الإسلامية العربية، ومع ذلك فقد كان ـ تاريخيًّا ـ من أحدث البلاد دخولًا في الإسلام؛ حيث تأخر انتشار الإسلام فيه حتى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، ويبدو أن اندفاع الفاتحين المسلمين إلى

الغرب ـ بعد تمام فتح مصر ـ شغلهم عن الاتجاه جنوبًا[١].

إن السودان من البلاد التي دخلها الإسلام دون حرب، دخلها بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، فدون تدخل من أي دولة إسلامية، كان الإسلام يسري في بلاد السودان في هدوء يملأ القلوب؛ وذلك عن طريق بني رفاعة، وعرب جهينة، ودولة الفونج[٢].

(وقد انفردت بلاد سودان وادي النيل بوضع متميز عن سائر البلاد الإسلامية؛ فعلى قربها من بلاد العرب، وصِلَتِها الأبدية الحميمة بمصر، وبرغم بكور دخول الإسلام فيها، ظلت خارج حوزة الخلافة الإسلامية الراشدة منها والأموية، والعباسية أو العثمانية التركية. ظلت على هامش ذلك العالم، ولم تكن التغيرات والتيارات الفكرية والسياسية والاقتصادية المتجددة، والمتكررة لِتَمَسَّهَا إلا بقدر يسير، وعلى طول ذلك الزمان، فإن الأمة السودانية كانت في طور التكوين البشري، والجغرافي، والسياسي، واستمر ذلك الحال حتى مطلع القرن التاسع عشر.

لقد بقيت الممالك النصرانية في بلاد النوبة الممتدة من حدود مصر، وحتى «سنار» في أواسط الجزيرة حيًّا كَمَيِّتٍ، منذ ظهور الإسلام، وحتى القرن الخامس عشر لا تمثل إلا سلطة متآكلة مع الزمان، وديانة لم يُتَحْ لها إلا القليل بين سكان ضفاف النهر، بينما كان الإسلام واللغة العربية والقبائل العربية تنتشر، وتغلب على المجتمعات النوبية، والمجتمعات البدوية العربية والنوبية، ومن كانت تتصل به من الجماعات الزنجية في الغرب وفي الجنوب، في بلد شاسع تمتد أرضه من المدار الشمالي، وحتى خط الاستواء. نعم، لقد حدثت تحولات كبيرة، وخطيرة في القرن الخامس عشر، وقُبَيْلَهُ، وبعده، وأصبح الإسلام الكم والكيف، وصارت له السلطة والدولة، وأصبح له النفوذ

(١) «أطلس تاريخ الإسلام»، ص(٣٣٤).
(٢) السابق، ص(٣٣٦).

السياسي[١]، ووجدت شريعة الله سبيلها للناس.

حدث ذلك عندما قامت الممالك الإسلامية في الغرب، والوسط، والشمال، في «تقلى» و«المسبعات»، وفي «سنار» التي امتدت سلطتها حتى حدود مصر، وعُرِفَتْ «بالسلطنة الزرقاء». وكان كل ذلك؛ لانتشار القرآن، وازدياد العلماء، والتوسع في الصلات المتنوعة مع العالم الإسلامي المجاور، في مصر، وفي الحجاز، وفي تونس، وليبيا، والمغرب. واستمرت تلك التغيرات تزيد من حركة أهل بلاد سودان وادي النيل في الداخل بعضهم ببعض، فيزداد الإسلام انتشارًا، وتزداد حركة انتشار اللغة العربية، وما يتبعها من قِيَمٍ ومفهومات وسلوك. ويبلغ ذلك الأجزاء الجنوبية منه. وبنفس القدر كانت حركة الاتصال بالخارج تزداد، فكانت للسناريين أروقتهم المعروفة بهم في «الأزهر الشريف»، وكان لهم حجيجهم المعروف بهم في الحجاز، وكان لهم علماؤهم، وشيوخهم، وتجارهم المعروفون في عالمهم المجاور القريب منه والبعيد.

في ذات الوقت ظلت نتائج التحولات السياسية والاقتصادية والحضارية الناجمة

أولًا: من اشتداد المواجهة بين «دار الإسلام»، و«دار الحرب»؛ الأتراك العثمانيين، وخَلْفَهُمُ العالم الإسلامي، في مواجهة الكنيسة البابوية، وخَلْفَهَا كُلُّ دُوَلِ الغرب النصراني.

وثَانِيًا: ما نتج من تلك المواجهة من تحولات في طرق التجارة، واكتشاف للمسالك البحرية، وعلى رأسها اكتشاف أمريكا، والدوران حول «رأس الرجاء الصالح»[٢] وصولًا للهند.

وثالثًا: تَسَاقُط بلاد العالم الإسلامي، واضمحلال نفوذه رويدًا من الأطراف، في

(١) وقد قيل في تصوير ذلك: إن دار الخلافة كانت «جلبابًا» وسطه جزيرة العرب، وكُمَّاه يمتدان شرقًا في آسيا، وغربًا في مصر، وشمال أفريقية إلى أقصى المغرب.

(٢) كان البرتغاليون حريصين على تطويق المسلمين، ولما بدأ ملك البرتغال حملته على المسلمين في مراكش، وجد أن التطويق يجب أن يكون عن طريق الوصول إلى بلاد لا يسكنها مسلمون، حتى لا يساعدوا سكان الأندلس بثورات يقومون بها، فكان الانتقال عبر السواحل الأفريقية الغربية، وكانوا كلما وصلوا مكانًا وجدوا فيه مسلمين؛ تركوه، واتجهوا جنوبًا، حتى وصلوا الكنغو، وتجاوزوا خط الاستواء، ثم دفعت العواصف «بارتملي دياز» نحو أقصى جنوب القارة الأفريقية، وتجاوزها حتى وصل السواحل المطلة على المحيط الهندي، ولما عاد سمَّى الطرف الجنوبي من القارة برأس العواصف، ولكن =

الغرب النصراني، إلى أن أصيب العالم الإسلامي في قلبه بسقوط الشام ومصر، ومن قبلهما بلاد المغرب؛ لنفوذ فرنسا وبريطانيا.

ظلت نتائج كل هذا تنعكس على السودان في داخله؛ إذ لم يكن ليلفت من أنظار الطامعين، وكانت أوربا النصرانية قد أخذت تتوغل مكتشفة أسراره، وإمكاناته عن طريق الرَّحَّالة، والمسافرين، والتجار، والمبشرين. وتشقى إذ تجد الإسلام واللغة العربية ينتشران، ويتحلب لعابها لثروات عظيمة فيه، واستراتيجية تملك بناصيتها موارد النيل، مفتاح حياة مصر. ومع بداية القرن التاسع عشر كان محمد علي باشا قد أحكم قبضته على مصر، وخطط لأسباب متعددة لغزو بلاد النوبة، وكردفان، ودارفور بعد أن عرف عنها الكثير.

كان في بلاد سودان وادي النيل من السعة والثروة والرجال الأشداء ما يغري واليَ مصر «محمد علي باشا» الطُّموحَ القادمَ من «ألبانيا»، بعد ظهور «النظام الجديد»، وكانت بلاد النوبة وسنار وكردفان ودارفور تعيش فترة هامة من تاريخها. صِلاتُهَا بعضها البعض، وصِلَاتُهَا بالخارج، وحركتها نحو مناطق جنوب وادي النيل، وكان الإسلام ينتشر، وكانت اللغة العربية تنتشر، وكانت أساليب حياة الناس تتأثر بذلك في كل شيء: قيمِهَا، ونظمِهَا، توجهاتِهَا، سلوكِهَا، تعامُلِهَا، وما إلى ذَلِكَ، وكانت شعوب بلاد سودان وادي النيل، وقبائلها، تعيش فترة انطلاقة؛ لتلاحم، وانسجام، وانصهار في بوتقة الإسلام والعروبة. وإذا بباشا مصر الذي سمع عن جيران مصر في الجنوب الكثيرَ يُعِدُّ العدةَ لغزو تلك البلاد.

لم تكن تلك البلاد قد عرفت الغزو بالصورة التي عرفتها مصر وجاراتها مراتٍ ومراتٍ من قبل... ولم يكن ثمة أسباب لغزو الآخرين، أو الغزو من الآخرين. لم يقبل السودان فكرة غزو «محمد علي»، فكتبوا مستنكرين مدافعين بأنهم مسلمون، وبلدهم

= ملك البرتغال أطلق عليه اسم «رأس الرجاء الصالح» Cape of Good Hope حيث شعر بأمل في إمكانية تطويق المسلمين، كان هذا والمسلمون لا يزالون مرابطين في الأندلس، انظر: «أفريقيا يراد لها أن تموت جوعًا» ص(١٩١).

بلد مسلم، دار إسلام، وليس دار حربٍ للمسلمين، فكيف يغزوهم جارٌ مسلم؟

وعندما بدأ «محمد علي» غزوه عام ١٨٢٠م لم يقابله النوبة والشايقية مستسلمين لعدده وعتاده، قاوموه بأرواحهم في معاركَ كانوا يعلمون أنهم سيخسرونها معاركَ، ويكسبونها استشهادًا ومستقبلًا؛ إذ يظل الثأر، ويبقى الحق ما بقي عنه المدافع. وهكذا كان الحال في بلاد «الجعليين»، وفيما بعدها من البلاد حتى مناطق الجنوب. وما كان محمد علي وأتباعه ليصلوا إلى ما وصلوا إليه في السودان لولا غلبتهم عددًا وعدة، وما كانوا بمستطيعين هم ـ أو من سمي بالمكتشفين لمنابع النيل من الأوربيين ـ أن يعرفوا ما عَرَفوه، أو يبلغوا ما بلغوه، لولا أنَّ تَوَسُّعَ محمد علي وتوسع أوربا صادف حركة واسعة لاكتشاف الذات، واكتشاف الأرض في داخل البلاد. وبَدَهِيٌّ أن سكان تلك المناطق لم يكونوا بحاجة إلى من يكتشف لهم بلادهم من الخارج. ولنا أن نرجع لسيرة «الزبير باشا رحمت»، وأمثاله ومعاصريه لنعرف العمل الكبير والأساسي الذي قاموا به فيما تم من توسع، وما سمي باكتشافات.

أحدث غزو محمد علي للسودان هزة بالغة في كيان مجتمعه المسلم الذي عرف للإسلام صفاءه وأمجاده، وعرف للمسلمين زهدهم، وورعهم، وتقواهم، وعزتهم، وعزمهم، وحسمهم. إنها بلادٌ أنارها نور القرآن، وقد انتشرت خلاويه «وفقراه» في كل جوانب البلاد؛ شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، إنهم شعب عمرت قلوبهم بالإيمان، وحسن إسلامهم، وقام فيهم العلماء، وقضاة العدالة، ونبغ فيهم البلغاء، والشعراء، والمُدَّاح (مُدَّاحُ الرسول ﷺ)، ومن قَبْلِهِمْ حفظة القرآن؛ حتى أصبحت مواضع، وأسماء قرى كثيرة في جهات السودان المختلفة تعرف بمن بها «بالفقراء»، أو «بخلاوي القرآن»، أو «بالمسيد» (المسجد)؛ حيث أصبحت أماكن استقرار العلماء وحفظة القرآن المواضع التي تعمر بالسكان والعمران.

كان ذلك الإسلام، ثم كانت تلك الهزة العنيفة العميقة، وما تبعها من حكم ظالم

بغيض، وحكام ما كانوا بأية حال يعكسون الصورة المتوقعة من الإسلام والمسلمين؛ كان عهد محمد علي ببلاد سودان وادي النيل هو العهدَ الذي دخلت فيه تلك البلاد في منظومة بلاد الشرق الأدنى؛ لتصبح بطريق غير مباشر جزءًا من الإمبراطورية العثمانية المتحضرة، وبتلك الصورة وجدت بعض المداخل للعالم الحديث؛ مثل وسائل الاتصال السلكية، ومبادئ التعليم الحديث، عمل فيه «رفاعة رافع الطهطاوي»، وبعض المحاصيل الزراعية الجديدة؛ مثل القطن، مع بعض وسائل الزراعة الحديثة. لكن كانت مع ذلك السخرة، والتجنيد الإجباري، وأساليب من العسف والتعذيب؛ مثل «الخازوق»، وكانت الضرائب الباهظة. وجاءت مع جنود باشا مصر ـ وهي أخلاط عجيبة من بقايا المماليك والفلاحين المُجْبَرِينَ ـ جاءت معهم أشكال غريبة من شُذَّاذ الآفاق، وحثالة أوربا الغربية، من غربها ووسطها وجنوبها، من الرعايا العثمانيين وغيرهم من الأوربيين. لم يكن غريبًا أن يحسب الكثيرون أنها علامات آخر الزمن، ولا بُدَّ أن يزول ذلك الكابوس عن العالم الإسلامي المنهزم كله بظهور «صاحب الوقت» «المجدد» «الختم»، «القطب»، أو «المهدي».

لم يكن ذلك التوقع قاصرًا على السودان، بل شمل العديد من المسلمين، بيضان وسودان[1].

لقد كانت أولى أعلام دخول السودان ميدان التاريخ محاولة محمد علي صاحب مصر فتح السودان ابتداءً من سنة ١٨٠٧م، وتوسيع حدود مصر حتى تشمله، وقد بدأت العملية سنة ١٨٢٠ م، ومهما قيل في محاولة محمد علي فتح السودان؛ فإنها في الحقيقة كانت نداءً قويًّا أيقظ السودان، ونَبَّهَ أهله إلى أنه أصبح عضوًا في أسرة الإسلام والعروبة الكبرى، وأن عليه أن يأخذ نصيبه من آلام هذه الأُسرة ومسراتها[2].

---

(١) «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص(٣٥٨ ـ ٣٦١)، بتصرف.
(٢) «أطلس تاريخ الإسلام»، ص(٣٣٦).

أَسْبَابُ غَزْوِ مُحَمَّد عَلِي لِلسُّودَانِ(١)

١ ـ ما أكد عليه محمد علي في مراسلاته لابنه؛ وهو جلب العبيد لتشكيل جيش قوي منهم.

٢ ـ مطاردة المماليك الذين فروا بعد مذبحة القلعة إلى النوبة، ثم إلى بلاد الفونج سنة ١٨١١م.

٣ ـ إشغال الجند الألبانيين، أو التخلص منهم عن طريق إرسالهم إلى السودان.

٤ ـ كشف منابع النيل، والسيطرة عليها.

٥ ـ اكتشاف ثروات السودان، وبخاصة الذهب والفضة والعاج، بجانب الثروة الزراعية، واستغلالها لتعويض خسائره في الحروب.

٦ ـ ترويج تجارة مصر في السودان.

٧ ـ توسيع حدود دولته عن طريق توحيد مصر والسودان.

أرسل محمد علي عام ١٢٣٦هـ حملة بقيادة ابنه الثالث إسماعيل كامل باشا، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، فاستولى على «دنقلة» و«بربر» و«شندي»، وكذلك قضى على مملكة الفونج، غير أن إسماعيل أصيب بمرض، فتوجه عائدًا إلى مصر، ولما وصل إلى بلدة «شندي» انتقم منه حاكمها بأن أحرق الخيمة التي كان يقيم فيها، واحترق معها، مما أحزن محمد علي، وأثار غضبه، فأرسل جندًا جديدًا بقيادة خورشيد باشا، فأحرق بلدة شندي، ونكَّل بأهلها.

وبقيت المناطق المذكورة تحت حكم «محمد علي»، وأسرته من بعده، وفي عام ١٢٧٩هـ، وصل إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي إلى حكم مصر، وكان حريصًا على التوسع، وكانت الدولة العثمانية آنذاك على درجة من الضعف تحول دون إمكانية فرض هيبتها على المناطق البعيدة عن مركزها والتابعة لها، فتنازلت له عن سواحل

(١) انظر: «التاريخ الإسلامي»، (٤٨٨/٨)؛ «الأصول الفكرية»، ص(١٠٤).

البحر الأحمر الغربية، وسواحل خليج عدن، ورأى هو أن يضم إليه الأراضي الواقعة إلى الجنوب من حدود دولته، حيث المجرى الأعلى لنهر النيل، فعهد إلى ضابط إنكليزي يهودي يدعى «صموئيل بيكر»، لتنفيذ أغراضه، وأعطاه رتبة فريق في الجيش المصري، وعهد إليه بمهمة فتح الجنوب بما في ذلك «أوغندا»، أو ما عرفت آنذاك باسم «مديرية خط الاستواء» «إكواتوريا»، وكلَّفه بالعمل على تنشيط التجارة المشروعة، والوقوف في وجه تجارة الرقيق ...

لقد وضعت مصر سياسة ثابتة لنشر الإسلام في مناطق منابع النيل، وتوافد العلماء والفقهاء من مصر إلى هناك، وما أفسد هذا العمل الجليل كله إلا الإنكليز الذين هم وراء متاعب العالم الإسلامي كله من السودان إلى فلسطين.

● يقول د. حسين مؤنس:

«إن أساليب الإدارة المصرية أيام محمد علي كانت غير منصفة؛ لا لأهل السودان، ولا لأهل مصر، ومع ذلك فقد كانت وحدة مصر والسودان أيام محمد علي، وما بعدها إلى أواخر أيام إسماعيل، من أكبر العوامل في إتمام إسلام السودان، ولولا أن إسماعيل الخديوي عهد في إدارة السودان لزبانية الاستعمار من أمثال صمويل بيكر، وجوردن، لأصبح السودان كله إسلاميًّا خالصًا، بل لامتدت دولة الإسلام حتى شملت وادي النيل كله»[1].

لم يكن غريبًا أن يخون «صموئيل بيكر» و«جوردون» الأمانة التي أنيطت بهما، ولكن العجب الذي لا ينقضي هو: كيف تأتمن الإدارة المصرية هذين الذئبين الذين عملا ـ بكل إخلاص ـ لمصالح وطنهم إنكلترا؟

بِـأَبِـي وَأُمِّـي ضَـاعَـتِ الْأَحْـلَامُ أَمْ ضَـاعَـتِ الْأَذْهَـانُ وَالْأَفْـهَامُ

مَنْ حَادَ عَنْ دِينِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ أَلَـهُ بِـأَمْـرِ الْمُسْلِـمِـينَ قِـيَـامُ؟

(١) «أطلس تاريخ الإسلام»، ص(٣٣٦).

لقد أقيل «بيكر» بعد أن ثبت أنه يعمل على عكس البرنامج المطلوب منه؛ من كسب محبة سكان الجنوب، وتأليف قلوبهم، والتقريب بينهم وبين إخوانهم في الشمال.

ثم استخلف إسماعيل ضابطًا بريطانيًا آخر هو «جوردون» (١٢٩١ هـ، ١٨٧٣م) الذي جاء إلى مديرية خط الاستواء؛ ليخدم المصالح الإنكليزية كسابقه.

واستهل «جوردون» عمله بأن أرسل إلى ملك «أوغندا» بعثة تُعَلِّمُهُ «الدين الأوربي»، وتُحَدِّثُهُ عن عظمة ممالكها؛ وذلك لأن ملك أوغندا «موتيسا» كان قد عقد العزم على اعتناق الإسلام، وطَلَبَ من «جوردون» - بصفته مُوَظَّفًا يُمَثِّلُ مصر - إرسال علماء من الأزهر؛ كي يعلموه وقومَهُ دين الإسلام؛ تمهيدًا لانضمام «أوغندا» - اختياريًا - إلى السودان، وبدلًا من ذلك أرسل إليه تلك البعثة كي تَحُولَ دون دخوله في الإسلام، وتدعوه إلى اعتناق النصرانية[١].

وقد منع «جوردون» وصول السلطات المصرية إلى مياه بحيرة فيكتوريا؛ خوفًا من وصول المسلمين إلى تلك الجهات، واحتكاكهم بأبناء البلاد، والتأثير عليهم، وتركها ميدانًا رحبًا للتوسع الإنكليزي[٢].

● يقول د. عبدالعظيم الديب - حفظه الله -:

(... وقد وقع في يد المسئولين بمصر - قَدَرًا - رسائلُ متبادَلَةٌ بين جوردون ولندن، تثبت أنه يعمل لحسابهم ضد مصر؛ لهذا أُخرج «جوردون» من السودان)[٣]. اهـ.

---

(١) «جنوب السودان»، د. عبد العظيم الديب، ص(٢٢ - ٢٤).

(٢) «التاريخ الإسلامي»، (٨/ ٥١٠).

(٣) «جنوب السودان وصناعة التآمر ضد ديار المسلمين»، ص(٢٤).

«جوردون» للمرة الثانية

● يقول د. عبدالعظيم الديب ـ وفقه الله ـ:

(وكأن إنجلترا أعيتها الحيل في السودان، في قلب أفريقية، فنقلت مؤامراتها، وجهودها إلى رأس القارة؛ إلى مصر، عسى أن تضرب السودان (قلب أفريقية) إذا تم لها ضرب مصر (رأس أفريقية)، فنصبت شِبَاكَ الديون والقروض، وأوقعت فيها حُكَّام مصر، وتدخلت في شئونها، وراحت تملي أوامرها في كل شأن، بما في ذلك إدارة السودان.

فحين سَلَّمت، واعترفت بحدود السودان، ووَحْدته استدارت من ناحية أخرى؛ لتحطم وتفتت هذه الوحدة، وفرضت على مصر (التي كانت قد خضعت لها) تعيين (غوردون) حاكمًا عامًّا للسُّودان (ويا للسخرية! مصر تحكم السودان، والحاكم غوردون).

وجاء (غوردون) الذي طُرِدَ من قبل ... لا مديرًا للجنوب فحسب؛ بل حاكمًا عامًّا، يحمل خطة واضحة لتحقيق ذات الأهداف القديمة؛ وهي:

● تفتيت السودان، وعدم السماح لدولةٍ بهذا الاتساع برفع هامتها في قلب القارة.

● القضاء على الدين الإسلامي[(١)].

● محاصرة العنصر العربي في السودان، وإضعاف شأنه، وتحطيمه.

وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف الخبيثة استخدم الأساليب التالية:

أ ـ عزل جميع الموظفين النابهين ذوي السمعة الحسنة، والسيرة النبيلة، مصريين وسودانيين، ولم يكن يطيق أي سوداني نابه يتفهم مشكلات بلاده، ويعمل لإسعادها.

---

(١) وكان جوردون قد طلب ـ أثناء وجوده بالسودان ـ قسيسًا من السويس؛ لينشر المذهب البروتستانتي بين مسلمي السودان؛ كما في «الأصول الفكرية»، ص(٩٠).

ب ـ جاء بجيش من الموظفين المرتزقة من أوباش الأمم، وكان شرطه الأول والأخير فيمن يعمل معه أن يكون عنصريًّا متعصبًا للرجل الأبيض.

جـ ـ عمل على بعث الروح القبلية بين أهل البلاد، وراح يوقع بين كل قبيلة وأخرى، وألزم كل سوداني أن يكتب بجوار اسمه في الأوراق الرسمية ـ كشهادة الميلاد ونحوها ـ اسم القبيلة التي ينحدر منها؛ حتى لا ينعم أهل البلاد بالأخوة الكاملة.

د ـ عمل على تحطيم العقيدة الإسلامية في نفوس الشعب، فأوعز إلى بعض رجاله الأوروبيين فادعوا الإسلام، ولبسوا ملابس المشايخ أصحابِ الطرق، وادَّعَوُا التفقُّهَ في الدين، وأخذوا في إفتاء الناس على هواهم، وقاموا بنفس الدور الذي قام به من قبل (عبدالله بن سبإ) اليهودي.

وكان على رأس هؤلاء «جس» الإيطالي الذي تسمى باسم الشيخ (أمين)، وكان يُوَزِّعُ البركات ويمنح العهود.

هـ ـ وأصدر غوردون أمرًا أباح به البغاء العلني، واستقدم جيشًا من العاهرات، وأباح لهن السكنى في أي مكان، ولو بجوار المساجد والزوايا والمدارس.

و ـ عمل على فصل جنوب السودان عن شماله، فقد ظهرت صحيفة «المكتشف» الإيطالية في تلك الفترة، وفيها على لسان أحد معاوني «غوردون» الإيطاليين: «يجب أن نفصل تمامًا البلاد السوداء (أي بلاد الزنوج) عن البلاد العربية من السودان، والتي يهيمن عليها العرب، وأن تُجْمَعَ تحت إدارة مستقلة واحدة أراضي بحر الغزال، ومديرية خط الاستواء، وذلك أن العرب الموجودين في السودان ليسوا إلا لصوصًا وشحَّاذِينَ يجب إرجاعهم إلى بلادهم الأُصلية».

ز ـ عمل على التخلص من الزعيم السوداني الخطير «الزبير رحمت باشا»، فرفض رجوعه إلى السودان.

وظن «غوردون» أن جهوده قد أثمرت، وما غرسه من شر قد آتى أُكُلَهُ، فترك منصبه، وذهب ليستريح، وهو واثق من أنه حقق أهدافه الاستعمارية الخبيثة.

ولكن حالة البلاد كانت ـ كما صورها أحد علماء السودان ـ في رسالة إلى أستاذه بالأزهر، يقول فيها: « ... إن الحكومة التي يرأسها «غوردون» كأسدٍ كاسر، والأهالي

كالأنعام الضالة، لا راعي لها غير الأسد! هذه حالنا اليوم، وأنا أؤكد لك أن هذه الأحوال لن تدوم إلا أيامًا قلائل، وسترى أن الأغنام ستنقلب إلى ذئاب ... وسيقودها أسد كاسر، ويموت الأسد الظالم شَرَّ ميتة». وكأنما كان هذا العالم يقرأ من كتاب مفتوح!»[1]. اهـ.

* * *

(١) «جنوب السودان»، ص(٢٧ - ٣١؛ وانظر: «التاريخ الإسلامي»، (٨/ ٥١٠).

التَّعْرِيفُ بِالْمَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ(*)

(١٢٥٩ ـ ١٣٠٢ هـ)، (١٨٤٤ ـ ١٨٨٥م).

هاجرت أسرة المهدي من الجزيرة العربية فيمن هاجر من العلويين؛ فِرارًا من المظالم والآلام التي كان يصببها على رءوسهم الحجاج بن يوسف الثقفي في عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مَرْوان وفي عهد ابنه الوليد، وقد اتخذت هذه الأسرة واديَ النيل مُهاجَرًا لها، فأقامت في الفسطاط ما طابت لها الإقامة، وبها مات أحد رجالها المعروفين، نجم الدين بن عثمان ودفن عند «باب الوزير»، حي من أحياء القاهرة القديمة، ثم شدت الأسرة رحالها، وواصلت رحلتها جنوبًا، وقد طاب لبعض أفرادها المقام في «كشتمة» بين «أسوان» و«الدر»، وظل باقي الأسرة، وعلى رأسهم السيد نصر الدين بن عبدالكريم بين ظعن وإقامة، وحَلٍّ وَتَرْحَال، حتى انتهى بهم المطاف إلى إقليم «دنقلة» بالسودان، فألقوا عصا تَسْيَارِهِمْ هناك.

وبعد نزول أسرة المهدي في إقليم «دنقلة» بالسودان اتجه بعض أفراد هذه الأسرة إلى جزر ثلاث هناك، فاستوطنوها، وهي جزر «ضرار» و«لبيب» و«آب تركي»، ومن ثم عُرِفَتْ هذه الجزر، وما زالت تعرف إلى اليوم، باسم جزائر الأشراف.

ومن هذا الإقليم ـ إقليم «دنقلة» ـ، وفي أواسط القرن السابع الهجري، سطع نجم أحد رجال هذه الأسرة المبرزين، وهو السيد حاج شريف، وطار ذكره، وبَعُدَ صيته، وعُرِفَ بالعلم والتقوى، فقصده الأتباع والمريدون من كل فج عميق.

وقد عُمِّرَ هذا الشيخ طويلًا... مستمتعًا بسلطان روحي قوي، ووُلِدَ له من الذكور ستة، أكبرهم السيد «محمد» جد المهدي من قِبَلِ أبيه، ثم قضى الحاج محمد شريف، وما زالت له، ولذريته إلى الآن قباب بـ«دنقلة» تُعْرَفُ بقباب الأشراف ...

(*) المصدر الرئيس لهذا الفصل: «الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته»، للدكتور عبدالودود شلبي ـ حفظه الله، من ص(١٧ ـ ٣١) بتصرف.

وقد وُلِدَ للسيد محمد بن الحاج شريف وَلَدٌ سَمَّاهُ عبدَالله، هو والد المهدي، وكان صَنَّاعًا ماهرًا، احترف هو وبعض أفراد أسرته حرفةَ النِّجَارة، وصناعة السفن.

وكانت المنطقة التي يعيشون فيها بـ«دنقلة»، لا تسعفهم بالأخشاب الصالحة لمزاولة مهنتهم، فارتحل عبدالله هذا، ومعه أسرته إلى مدينة «كرري» الواقعة على بُعْد خمسة عشر ميلًا شمال «أم درمان».

وقد اختلفت الروايات في تاريخ مولد المهدي، ونُسِبَ إلى ابنه السيد عبدالرحمن المهدي أنه قال: إن والده وُلِدَ في السابع والعشرين من رجب، سنة ١٢٦٠ هـ، الثاني عشر من أغسطس ١٨٤٤م، وأن مولده كان بجزيرة «لبب»؛ إحدى جزائر الأشراف.

وقد أطلق عليه والده اسم «محمد أحمد»، وظل يعرف بهذا الاسم إلى أن جهر بدعوى المهدية في الثامنة والثلاثين من عمره، وقد مات والد المهدي بعد عام من انتقاله إلى «كرري»، فدُفِنَ بها، وكذلك تُوفِّيَت والدته بعد عام من موت والده، وفي ذلك الوقت كان الصبي «محمد أحمد» قد بلغ السن التي يذهب فيها أقرانه إلى «الخلوة» أو «الكتَّاب» لحفظ القرآن الكريم، فذهب إلى خلوة الشيخ الفقيه الهاشمي بالقرب من «كرري» شمال «أم درمان»، وبقي فيها سبع سنوات، حفظ فيها القرآن، وجوَّده، وقد رغب شقيقاه أن يتعلم صناعة السفن، فرغب في غير ما رغبا فيه.

ثم انتقل بعد ذلك إلى خلوة الشيخ محمود الشنقيطي، ثم إلى خلوة الشيخ الأمين الصويلحي، بمسجد «ود عيسى» بالجزيرة، فبقي فيها قليلًا، ثم مضى إلى خلوة الشيخ محمد الخير في «الغبش»، تجاه «بربر»، فطاب له المقام والاعتكاف على الدروس والتحصيل.

وأظهر «محمد أحمد» في هذه الفترة إخلاصًا شديدًا للدين، وراض نفسه حتى يكبح جماحها، واشْتُهِرَ بالزهد والتقوى والورع، والولاء الخالص للأستاذ، كما أظهر تبرُّمًا مبكرًا من علاقة المشايخ بالحكومة، وقبولهم الجِرَايات[1] التي تنفقها عليهم، كان

(١) الجِرَايات: جمع الجِرَاية، وهي الجاري من الرواتب.

يرى أن ذلك مال حرام، يُجْبَى بلا شريعة تُسنِده، وبأسلوبٍ من العَسْفِ شَدِيدٍ[١].

ويترقب «محمد أحمد» رسالة أهله؛ ليدفع بها عن نفسه غائلة الحاجة والجوع، فإذا ما جاءه المال ألفاه زائدًا عن حاجته الخاصة، والقليل منه كافٍ لسد عِوَزِهِ، ثم ينتهي به الأمر إلى أن يتصدق بالمال كُلِّه، ويعتمدَ على نفسه بالخروج إلى الغابة لقطع الأخشاب، وبيع ما يقدر على حمله منها في السوق، ويأكل ببعض ثمنه، ويتصدق بالباقي كله على الفقراء.

فإذا تعذر عليه الاحتطاب من الغابة لسبب من أسباب الطبيعة؛ خرج إلى النيل لصيد الأسماك، وإنه ليتورع عن أن يضع في صِنارته طُعْمًا حتى لا يخدع السمك الذي يحوم حولها في الماء، إن السمك مخلوق من مخلوقات الله، فلا ينبغي لأحد - إن كان مسلمًا - حقًّا - أن يخدع هذه المخلوقاتِ، وإذا كان الله قدر له رزقه، فليكن بطريق آخرَ غير التحايل والخداع.

ويعلم شيخه «محمد الخير» بقصة عزوفه عن طعامه، وقطعه الأخشابَ في الغابة، واحتطابه، وخروجه لصيد الأسماك، وتورعه عن خداعه، فيُقَبِّلُهُ بين عينيه إجلالًا، ويضمه إليه حُبًّا وإكبارًا، ثم يعرض عليه قائلًا: «يا بني، إني ورثت عن آبائي هذه الساقية، وتلك الأرض، والجارية والعبد، وإني لأقتات وأهلي منها، وإنك لتوليني فضلًا أيَّ فضلٍ لو أنك شاركتني القليل مما لديَّ»، فأطرق «محمد أحمد» إطراقة المتأني، فألَحَّ عليه أستاذه، وعاود الإلحاح، فقبل على أن يؤدي عِوَضَ ذلك عملًا يساعد به الجارية والعبد في حرث الأرض.

هكذا كان أمره، ولَمَّا يَبْلُغِ العشرين، لقد حصَّل «محمد أحمد» في تلك السن المبكرة من العلم الكثيرَ؛ فدرس النحو، والصرف، والفقه، والتفسير، والتصوف، وأُولِعَ بالأدب والعلوم العقلية؛ فدرس الفلسفة، والعلوم الطبيعية، والمنطق، وأقبل على التفسير، وقرأ فيه قدرًا كبيرًا[٢].

---

(١) «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص(٣٦٢).

(٢) ووجد بخطه على ظهر نسخة من «تفسير الجلالين» ما يفهم منه أنه قرأه أكثر من سبع وأربعين مرة على مشايخ كثيرين.

وكان الحكم المصري قد فتح الطريق أمام الصوفية التي نشطت في القرن التاسع عشر إلى أبعد الحدود؛ فاشتد نشاط الطريقة السمانية التي دخلت السودان سنة ١٨٠٠م، وشجع «محمد علي» طرقًا صوفية أخرى؛ كالطريقة السعدية؛ وهي فرع من الرفاعية، والطريقة الرحمانية؛ وهي فرع من الدرقاوية.

فماذا يختار «محمد أحمد» من هذه الطرق؟ وإلى أي شيخ يتقدم ويُبَايِعُ؟ لقد ذهب إلى الشيخ محمد شريف نور الدايم نقيب الأشراف، وشيخ المشايخ، والقطب البارز في الحركة الصوفية، وحفيد مؤسس الطريقة «السمانية» في السودان، وكانت شهرته قد سبقته إلى أستاذه، فأخذ منه العهد، وتَقَبَّلَهُ أحسن قبول، وكان ذلك في سنة (١٢٧٧هـ - ١٨٦١م)، وبقي عنده منقطعًا للعبادة والصلاة، ملازمًا خدمةَ أستاذه سعيدًا بأيِّ عملٍ يكلفه به، مبالِغًا في احترامه وتقديره، حتى إنه ليجلس أمامه منكسًا رأسه، فلا يرفعها إلا إذا حدثه.

كان كالطفل «بين يدي القابلة ... والميت بين يدي غاسله»؛ كما يقول الصوفية، لذلك أحبه شيخه، ورقاه في مدارج الطريقة، ورفع له راية، وأذن له بالتجوال في البلاد، وإعطاء العهود للمريدين، لكن سرعان ما دبَّ خلافٌ بينه، وبين شيخه «محمد شريف»، حصلت بينهما بسببه جفوة، فعاقبه على جرأته، وطرده من طريقته، وكانت تلك خلفية انتقاله إلى جزيرة «آبا» في النيل الأبيض؛ حيث شيَّد مسجدًا، وأقام خلوة للتدريس عام (١٢٨٦ هـ - ١٨٧١م). رَجَعَ «محمد أحمد» بعد ذلك إلى جزيرة «آبا»، فأقام بها مسجدًا، وشقَّ لنفسه غارًا، وأنشأ بها خلوة لتعليم الناس من كل مكان. ويُقَالُ: إنه كان يتولى تعليمهم بنفسه، حتى إنه علَّمَ ألوفًا مؤلفة من الأعراب، وتناهى إلى الناس أمر هذا الولي الشاب، فأقبلوا عليه يطلبون البركات.

وبدأ نجمه في الظهور والارتفاع ... أخذ الناس يتناقلون أخبار هذا العابد الناسك، وينشرونها في كل مكان: إن «وليًا» جديدًا من أولياء الله يسكن جزيرة «آبا»، والسفن

المسافرة على مياه النيل لا يمكن أن تمضي دون التوقف بمحاذاة هذه الجزيرة؛ لنوال البركة، والتمتع بالنظر إليه لحظة.

ويعاوده الحنين إلى شيخه، فيذهب لزيارته، ويتقدم إليه كعادته ضارعًا ذليلًا ... وقد وضع «الشُّعبة[1]» في عنقه، وفروة الضأن فوق خاصرته، ويحثو الرماد على رأسه كأنه العبد الآبق، ويقبل على شيخه طالبًا منه الرضا والمودة، فيحل الشيخ الشعبة من عنقه، وفروة الضأن من خاصرته، وينفض التراب عن رأسه، ويدعو له بالخير والبركة، ثم يُقِيمُ عنده بعد ذلك مدة.

كان هذا اللقاء بين الشيخ، وحواريه هو آخر لقاء ينتهي بينهما في ألفة ومودة؛ فقد أخذت الأمور بعد ذلك تتدهور على نحوٍ غيرِ متوقعٍ، وغامت سماء صفائهما بالسُّحُبِ.

لقد انتهى الأمر ووقع الخلاف بين «محمد أحمد»، وشيخه ... واختلفت الآراء والأقوال في تفسير أسباب هذا الخلاف وتعليله:

فالشاطر البصيلي يذكر قولًا منسوبًا إلى الشيخ محمد شريف: بأن سبب العِداء بينه وبين محمد مرجعه إلى أنه قد نهاه عن دعوته بالمهدية، وتوفيق أحمد البكري يذكر سببًا آخر للخلاف بينه، وبين أستاذه، يرجع في جملته إلى إنكاره على شيخه حفلةً أقامها في بيته بمناسبة ختان أولاده، رقصت فيها النساء والإماء، ونُقِرَتْ فيها الدفوف، وكل ما يُصَاحِبُ ذلك من اللهو، والمجون، والشرب.

لقد ندد «محمد أحمد» بكل ما رأى، وطلب من مريديه وأحبابه ألا يشتركوا فيه، قائلًا: «إن الشريعة تمنع الرقص، والغناء، والشراب، والمجون، وليس في وسع أحد إجازتها، ولو كان إمامًا وشيخ طريقة».

---

(١) الشُّعبة: خشبة طويلة يتفرع أحد طرفيها على شكل رقم (٧)، وتوضع في عنق العبد الآبق، أو المجرم.

لقد كان اعتراض المهدي على شيخه بسبب ما رآه في بيته أمرًا يتفق تمامًا مع نشأته وتربيته؛ فقد حدث في ليلة زفافه أن اجتمع بعض النسوة والرجال؛ لإحياء هذه الليلة بالرقص والأغاني، فقام إليهم «محمد أحمد» ومنعهم من ذلك؛ لأن اختلاط الرجال بالنساء، والرقص، والأغاني؛ حرامٌ كله.

ثم إن هذا التصرف من المهدي تجاه شيخه يؤيده ما وقع قبل ذلك مع أستاذه الشيخ «محمد الخير»؛ حيث اعترض عليه بسبب تقاضيه مرتبًا من الحكومة، كانت تعطي لمثله من علماء الدين وشيوخ الطرق؛ لأن مال الحكومة «جمع بطريقة لا يرضاها الدين، وبوسائلَ لا تتفق والعدل، فهو مالٌ حرامٌ، وآكِلُهُ مُوغِلٌ في الحرام، مُشْتَرِكٌ فيه».

وقد ذكر أنصار «محمد أحمد» رواية أخرى لتعليل الجفوة والقطيعة بينه وبين أستاذه؛ فهم يقولون: «إنه الحقد والحسد، وانصراف الناس عن الشيخ محمد شريف». وقد رأى الشيخ «محمد شريف» بنفسه إقبال الناس على «محمد أحمد» إقبالًا لا يجد مثله، فساءه ذلك جدًّا ... وأخذ يعمل على الخفض من سطوة «محمد أحمد»، وعين أحد المشايخ ندًّا له في المنطقة التي يسكنها، وطلب من الناس اتباع هذا الشيخ، فأنكر «محمد أحمد» على شيخه «محمد شريف» هذا التصرف.

ومما يؤكد ذلك أن الشيخ «محمد شريف» حين ذهب إلى «رءوف باشا» الحاكم المصري للسودان يحذره مغبة الدعوة التي تقول: إن «محمد أحمد» هو «المهدي المنتظر»، وكان «محمد أحمد» قد أعلن دعوته في ذلك الوقت، فإذا بالحاكم يتباسم؛ لأنه يعلم ما بين الرجلين من قطيعة، ويعزو قوله إلى الحسد، وضِغْنِ النفس.

وسواء أكان هذا الأمر، أم ذاك؛ فإن الشيخ «القرشي» أحدَ مشايخ الطريقة السمانية المناوئين للشيخ «محمد شريف» قد اجتذب إليه «محمد أحمد»، وأكرم وفادته، وأشاع أن «محمد أحمد» قد انفصل عن شيخه الذي خالف الشريعة والسنة.

وبينما هو يهم بالرحيل، أقبل عليه رسول أستاذه «محمد شريف» يدعوه إليه؛

ليتصافيا بعد تلك الجفوة والنفور، فاعتذر شاكرًا، ومضى نحو الشيخ القرشي، وجدد له العهد، وتعلق بشيخه الجديد، وتعلق به شيخه.

- ويعلق الدكتور «عبدالودود شلبي» ـ حفظه الله ـ على هذه الأحداث قائلًا:

وفي تصورنا أن هذا الخلاف بين «محمد أحمد»، وشيخه، كانت له آثار بعيدة في حياة «المهدي»، وقيامه بحركته. فقد خرج منه الحواري الثائر منتصرًا، واستدعاه الشيخ القرشي مُرَحِّبًا، ومحمد أحمد «بَشَرٌ» قبل أن يكون «وليًّا».

لقد بدأ يشعر بأهميته في نظر نفسه؛ كما بدأ يشعر بحب الناس والتفافهم حوله، وكان لانعتاقه من قبضة الشيخ «محمد شريف»، وارتباطه بالشيخ القرشي الذي كان قد بلغ التسعين من عمره؛ كان لكل هذه العوامل أثرها في تصرفه، وتصوره، وفي حرية فكره وعمله، وفي الترحيب والابتهاج بكل ما يشيعه الناس عن كراماته ووَلايته.

ولم يلبث الشيخ القرشي أن مات (١٨٨٠م)، فبايعه أتباعه، ودخلوا جميعًا في طاعته، وكانت هذه البيعة وما أعقبها مقدمةً لإعلان مهديته.

يقول إبراهيم فوزي: «إن الشيخ القرشي ذكر قبل وفاته أن زمن ظهور المهدي المنتظر قد حان، وأن الذي يشيد على ضريحي «قبة»، ويختن أولادي هو «المهدي المنتظر»، فلما سمع المهدي ذلك طار فَرَحًا، وجمع ثلاث مئة رجل من أتباعه، وذهب معهم إلى «الحلاوين»، وشيد القبة من اللَّبِنِ الأخضر، وختن أنجال الشيخ القرشي بعد أن أخذ العهود على كثير من الناس بتصديق دعواه قبل أن يصدع بها»[1].

وبينما هو يعمل مع العاملين في البناء، قدم بدوي فارع القامة نحيلها، مس الجدري أطراف وجهه، غريب اللهجة والزي، حديد البصر، تومض عيناه بذكاء عظيم؛ هو «عبدالله بن محمد ود تورشين» من قبيلة التعايشة.

لقد أقبل من غرب السودان يستحثُّ خطاه لأخذ الطريق من «محمد أحمد» ...

(١) «السودان بين يدي غوردون وكتشنر»، ص(٧٤).

قال له: «يا سيدي: أنا عبدالله بن محمد ود تورشين، من قبيلة التعايشة البقارة، وقد سمعت بصلاحك في دار الغرب، فجئت لأخذ الطريقة عنك، وكان لي أبٌ صالح من أهل الكشف، وقد قال قبل وفاته: إنك ستقابل المهدي، وتكون وزيره، وقد أخبرني بعلامات المهدي وصفاته، فلما وقع نظري عليك رأيت فيك العلامات التي أخبرني بها والدي بعينها، فابتهج قلبي برؤية مهدي الله، وخليفة رسوله».

وقد ذكر الشيخ «محمد شريف» بعد خلافه مع «محمد أحمد» أنه: «في سنة ١٢٩٥ هـ جاءني رجل من البقَّارة يروم سلوك الطريقة السمانية على يدي، فلقنته أورادها، ومكث ملازمًا لخدمتي، وأخبرني أنه جاء مع والده من بلاد «الكلكلة» جنوب مقاطعات «دارفور»، قاصدين الأقطار الحجازية؛ لتأدية فريضة الحج، وأنهما فقيران لا يملكان غير عجل من البقر ذللاه بزمام، وامتطياه على مألوف عادة أهالي تلك البلاد، ولما وصل إلى بلاد الجمع من تخوم كردفان الشرقية مات أبوه، ولحق به العجل؛ فأقام بمنزلي نحو عامين، فكان أكثر كلامه معي قوله: «**إنك المهدي المنتظر، من ارتاب في ذلك فقد كفر**».

فكنت أنهاه عن ذلك القول، ولا ينتهي، وفي ذات يوم قلت له: «أنا لست مهديًّا، وأبغض شيء إليَّ سماع هذه الكلمة التي لا يسير بها غير تلميذي الذي طردته محمد أحمد، وقلت له على سبيل السخرية والازدراء: إذا كنت ممن يتوقعون المهدية؛ فعليك به».

وفي اليوم التالي سألت عنه، فلم أجده، وأخيرًا علمت أنه لحق بمحمد أحمد في «الحلاوين»، وهو يشيد قبة الشيخ القرشي، وأنه حين وقعت عينه عليه خر على الأرض مدعيًا أنه «أغمي عليه»، وبعد حين رفع رأسه، فسأله الحاضرون عن سبب إغمائه، فقال: «نظرت أنوار المهدية على وجهه، فصعقت من شدة تأثيرها على حواسي»[1]

(١) «السابق»، ص(٧٥ - ٧٦).

«لقد بدأ المهدي في الدخول إلى مرحلة من تلك المراحل الفاصلة في حياته كفرد، وفي حياة السودان كشعب، وفي التاريخ كرجل من صانعي أحداثه، وعَلَم من أعلامه. «مرحلة تتصارع فيها نوازع الإنسان ورغائبه بين الرجاء، والخوف، والأمل، والواقع، فيخطر له أنه مندوب لأمر هام يروقه أن يصبح أهلًا له، ثم ينكل عنه خوفًا من تَبِعَاته وأهواله، وكلما طالت به المناجاة والتساؤل؛ تمكن منه الخاطر، وتلمس الخلاص من شكوكه بالمزيد من الرياضة، والاستعداد، عسى أن يلهمه الغيب سبيل الرشاد، ويجلو له حقيقة الأمر الذي هو في ريبٍ منه، وإذا احتجبت عنه آيات الإلهام فترة؛ فليس بالعجيب في هذه الحالة - بين الأمل والخوف - أن يذكر فترات الحيرة التي مرت بالرسل الكرام، ويحسبها من ضروب الامتحان والتمحيص، في انتظار الموعد الموقوت، وقد يصادفه بين هواجس هذه الحيرة من ينفضها عنه ببارقة أمل ورجاء، وكلمة تشجيع، فيتشبث بها، وما أسرع النفس إلى التشبث بأمثال هذه العُلالة[1] في أوقات الأزمات».

ثم يخطو الخطوة الأولى، فلا يعدم من يخطوها معه، ويسبقه إلى ما بعدها، ثم تدفعه المصادفات تارةً حتى يتوسط الطريق، وتنسد وراءه شيئًا فشيئًا منافذ الرجوع إن فكر في الرجوع، ولن يلبث بعد ذلك أن يعلق بدولاب الحوادث، فتوحي إليه أمرها بحكم الضرورة قبل أن يوحي إليها؛ فإن خامره شك فلعله يحسب - في هذه المرحلة - أن المصلحة في التقدم أكبر، وأضمن من المصلحة في التراجع، والنكوص، ويزعم لضميره أنه إنما يريد الخير، ولا يحاسبه الله إلا بما نواه»[2].

* * *

(١) العُلالة: ما يُتلهى به.

(٢) «الإسلام في القرن العشرين»، للعقاد، ص(١٤٧).

أَسْبَابُ الثَّوْرَةِ الْمَهْدِيَّةِ

الأَوَّلُ: عَقِيدَةُ «الْمَهْدِيَّةِ»:

لا شك أن حركة المهدي السوداني كانت حركة دينية في أساسها الفكري، وغايتها، ووسائلها، ولا شك ـ أيضًا ـ أن التصديق بأنه هو المهدي الذي بشر به النبي ﷺ خلع على زعامته نوعًا من القداسة، وجعل الناس يتسابقون إلى لقائه، والدخول في طاعته، وهذا لا يعني إغفال العوامل الأخرى التي دفعت حركته إلى «الثورية»، ونخص العامل الثقافي بالذكر هنا؛ إذ إن «الصوفية» هي التي شكَّلت، وصاغت صورة المهدي المنتظر؛ لما كانت تمثله من مرجعية بالنسبة للمجتمع السوداني عامة، ولشيوخ الطرق خاصة.

وهذا التصور لم ينبثق من مصادر السنة الصحيحة المحضة، وإنما اختلط به نتوءات وزيادات أضفتها عليه، وأضافتها إليه مصادر أخرى للتلقي، لا يسلِّم بها أهل السنة والحديث؛ كالأحاديث الضعيفة والموضوعة، والكشف، والإلهام، والرؤى، وحكايات الأولياء، واللقاءات المزعومة بالخضر، والأقطاب، والأوتاد، بل التلقي المباشر عن رسول الله ﷺ يقظة، أو النقل عن اللوح المحفوظ مباشرة(١).

لقد كان الشعب السوداني يتطلع إلى «المهدي المنتظر» (الذي يُخَلِّصُهُ من المظالم، التي أناخت على كاهله بشدة، والتي جعلت من الحكام وحوشًا مفترسة؛ فالضرائب باهظة، والرشوة متفشية، والدماء مهدرة، والأعراض مستباحة، والعدالة مفقودة، وفي مثل هذا الجو يشطح الخيال، ويستبد الأمل بالناس، فيتمنون الخلاص بأية طريقة، وينتظرون طلوع الفجر من أية ناحية، وقد لعبت الطرق الصوفية دورها في هذه المحنة، وهيأت أذهان الناس لقدوم ذلك البطل.

(١) وهذا ما سبق بيانه في «الباب الثالث» فراجعه.

وقد كان لابن عربي وكتبه دور كبير في هذه الناحية؛ فقد تكلم عن المهدي كثيرًا في «الفتوحات المكية»، وغيرها من كتبه، وكانت أقواله وكتاباته متداولة في السودان بكثرة، وقد أخذ عنه مهدي السودان كثيرًا، وسار على المنوال الذي اختطه، وكانت مهديته تجسيدًا للمعنى الذي أشار إليه ابن عربي في كتبه ومؤلفاته)(١). اهـ.

لقد كان من عادة محمد أحمد «المهدي» السوداني أن يخرج سائحًا مع بعض أصحابه؛ لإنذار الناس ودعوتهم، و«قد جال في جميع البلاد، ورأى بعينه وَجْدَ الناس - خاصَّتِهِمْ وعامَّتِهِمْ - على الحكومة، وشدة رغبتهم في التخلص منها؛ حتى كان الكثيرون يتمنون ظهور المهدي الموعود؛ لإنقاذهم من الحال التي كانوا عليها، وكلما رأوا رجلًا يفضلهم درايةً وعقلًا متصفًا بالغيرة على الدين ظنوه المهدي المنتظر».

لقد ترك هذا كله أثرًا في نفس «محمد أحمد»؛ فانصرف إلى التأمل والدراسة، واتجه إلى الاعتكاف والخلوة، ولقد تاقت نفسه أن يكون هو هذا الرجلَ الذي ينتظره الناس، وبات يحلم بهذا المنصب الذي يحكم بين البشر بالعدل، والقسطاس، لقد لعبت العوامل النفسية والشخصية دورها في نفس محمد أحمد، واضطرمت في قلبه جذوة الشوق والوجد، إنه صوفي عريق في التصوف، والصوفية يعتمدون على الذوق والإلهام والكشف، وفي عالم الصوفية مجال فسيح للترقي والسمو، ولشيخه «محيي الدين بن عربي» في ذلك كلام جميل وحُلْو»(٢).

فإذا نظرنا إلى المناخ العام في أفريقية وجدناه - أيضًا - مشحونًا بفكرة تَرَقُّبِ خروج «المهدي المنتظر»؛ إذ كانت بلاد العالم الإسلامي قد سقطت فريسة بيد الاستعمار الصليبي، وعانت ما اتسم به من تعصب وكراهية وحقد، فبدأت تغلي مراجل السخط والثورة والانفجار.

(١) «الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته»، ص(١٢ - ١٣).
(٢) «السابق»، ص(٢٣٩ - ٢٤٠).

«وقد سمع السودانيون ـ كغيرهم من المسلمين الأفارقة ـ عن قرب ظهور «المهدي»، الذي يُصْلِحُ الله به أمر الأمة، ويعيد للإسلام القوة والمجد والعزة، وقد بشَّرَتْ حركة «عثمان بن فودي»[1] بقرب ظهور المهدي المنتظر بالمشرق، وكتب أصحابه مؤلفات كثيرة في موضوعه، وقد ذكر «محمد بللو» في كتابه «إنفاق الميسور» أن والده عثمان قد أخبره عن قرب ظهور المهدي، وأن أتباع الشيخ عثمان هم أبكار أتباع المهدي، وأن الجهاد «الفولاني» لن يَخْمُدَ أُواره حتى يظهر المهدي.

وقد كان للوضع الجغرافي الذي يتمتع به السودان دورٌ كبيرٌ في تأثره بجميع التيارات التي تَهُبُّ على القارة الأفريقية، ونادرًا ما يقع شيء في هذه القارة ثم لا ينعكس صداه في السودان؛ بحكم هذه العوامل الجغرافية»[2].

الثَّانِي: فَسَادُ الأَوْضَاعِ الدَّاخِلِيَّةِ فِي السُّودَانِ:

«فقد شاهد محمد أحمد فيما شاهد أرواحًا مهدرةً، وحرياتٍ مغتصبةً، وأملاكًا منهوبةً، وبلادًا مخربة، والناس بين أثرياء ساقتهم تيارات النعيم إلى الشهوات والغَواية، وبين فقراءَ طحنتهم الفاقة؛ ففقدوا زمام التجمل بالصبر، وانجرفوا ـ على قلة ذات اليد ـ إلى الفساد والهاوية، ثم إن حكومة القاهرة أرسلت إليهم أمثال «بيكر»، و«غوردون»، وهؤلاء نصارى لا يدينون بدينهم، وكان أسلوبهم في الحكم موسومًا بالتحدي لشعائر الإسلام، وفرائضه؛ حتى تصور الناس أن الحكومة تريد بهم شرًّا وبدينهم»[3].

الحكومة نفسها كانت لعنة، ونظام الحكم في القاهرة أصبح عارًا وسُبَّةً، لم يكن هناك قانون يحكم، وحتى لو كان هناك قانون، فلن يجد الرجلَ الذي ينطق به، ويتكلم. كل شيء كان منهارًا؛ فسادٌ، ورِشْوةٌ، وظلمٌ، وحكَّامٌ جَهَلَةٌ قُساةٌ فَقَدُوا كل

(١) انظر تاريخها مختصرًا في «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص(٣٤٥ ـ ٣٥٧).
(٢) «الأصول الفكرية»، ص(١٣).
(٣) السابق، ص(٢٣٩).

إحساسٍ بالكرامةِ والعدل[١]، وسياطٌ محمومةٌ لا تَمَلُّ من التَّعذيبِ والجلْدِ. ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ!!

«ومهما يكن من شيء، فقد صادفت دعوة المهدي ذيوعًا ونجاحًا كان ـ دون ريب ـ لحالة البلاد السياسية والاقتصادية يدٌ كبرى فيه، فأقبل عليه الزعماء، وشيوخ القبائل مبايعين قائلين: نبايعك على المهدية، وإن لم تكن مهديًّا، نبايعك على قتال الحكومة، وخلع طاعتها...»[٢].

إن محمد أحمد عبدالله، أو «المهدي السوداني» لم يكن يفكر بأن يكون مهديًّا؛ لقد بدأ حياته واعظًا، ومرشدًا، ثم دفعته الظروف والأحداث بعد ذلك ليكون هو ـ في ظنه ـ «المهديَّ المنتظر» حقًّا.

وكما يقول «بسمارك» الإمبراطور الألماني:

«إن الناس يبالغون كثيرًا في تأثيري على الأحداث التي عَرَفْتُ فقط كيف أستغلها».

وهكذا كان المهدي؛ لقد لعبت عدة عوامل في إعلانه الجهاد، والثورة، واتخاذ حركته هذه الصورة العنيفة القوية[٣].

الثَّالِثُ: الثَّوْرَةُ الْعُرَابِيَّةُ فِي مِصْرَ:

لقد لعبت حركة «أحمد عرابي» في مصر دورًا بارزًا في الثورة المهدية، فهي التي أعطت المهدي السوداني الإشارة، وفتحت أمامه الطريق إلى الثورة، وهتفت بالسودانيين أن هيا حَطِّمُوا قيود الذُّلِّ والعبودية؛ والدليل على ذلك:

---

(١) حتى حُكِيَ أن «محمد الدفتردار» ـ أحد عمال «محمد علي» في حكم السودان ـ كان يخرج لاصطياد الآدميين على عادة غلاة القراصنة، والاستعماريين في ذلك العهد؛ كما في «السابق»، ص(٥).

(٢) «السابق»، ص(١٧٥).

(٣) «السابق»، ص(١٤).

ا ـ أن الثورة المهدية قامت بعد أشهر قليلة من الثورة العرابية.

ب ـ أن الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة العرابية هي نفس الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة المهدية.

جـ ـ أن نظام الحكم الذي ثار عليه الشعب المصري هو نفسه نظام الحكم الذي ثار عليه الشعب السوداني.

د ـ أن الفتوى التي أصدرها علماء الأزهر بمروق الخديوي عن الدين الإسلامي؛ بسبب خيانته، وانحيازه إلى الجيش البريطاني ـ قدمت إلى «المهدي» أكبر حجة لتسوغ ثورته ضد ممثلي هذا الحاكم، ونُوَّابِهِ في القطر السوداني.

هـ ـ أن الجيش المصري، الذي كان مفروضًا أن يَقْضِيَ على حركة المهدي ـ.كان مشغولًا في القاهرة بحربه ضد الإنجليز والخديوي، فلما أخفقت الثورة العرابية، وسيطر الإنجليز على مقاليد الحكم في القاهرة، أرسل الخديوي فِرَقًا من الجيش بقيادة الإنجليز؛ لإخماد حركة المهدية، فكان الضُّبَّاطُ والجنود المصريون يفرون بأسلحتهم، وعتادهم، إلى صفوف المهدي، وكانوا يقولون: إنهم لم يرسلونا إلى السودان إلا لقتلنا؛ بسبب أننا من جنود عرابي.

لقد كان الميدان خاليًا أمام المهدي؛ فمضى في طريقه إلى الجهاد، والثورة، والتحدي.

- يقول المؤرخ المصري عبدالرحمن الرافعي:

«**كان من أسباب ثورة عرابي** تذمر الضباط المصريين من سوء معاملة الأتراك والأرناءود، ولم يكن الضباط المصريون يجدون منهم في الجملة إنصافًا، ولا مساواة، ولا معاملة حسنة.

وكان من أسباب ثورة المهدي مظالم الحُكَّام، وما عاناه المواطنون من العَسْف والظلم؛ فإن غالبية هؤلاء الحكام كانوا من الشركس، أو الأرناءود أو الترك، وقد زاد في ارتكاب هذه المظالم أن الحكومة كانت تعتبر السودان منفًى للحكام، ولم تكن الحكومة ترسل إليه ـ في الغالب ـ إلا الموظفين المغضوبَ عليهم؛ فالموظف الذي يذهب

إلى السودان، وهو شاعر بأنه مُبْعَدٌ أو منفي، لا يُنْتَظَرُ منه العدل، أضف إلى ذلك أن حُكَّامَ مصر لم يكونوا في الغالب مِثَالَ العدلِ، بل إن مظالمهم هي التي أدَّتْ إلى قيام الثورة العرابِيَّةِ في مصر.

فما شكا منه المصريون ارتفعت بالشكوى منه ألسنة السودانيين، وكما يقول «ونستون تشرشل» الزعيم البريطاني الشهير: إن أهل شمال وادي النيل وجنوبه، كانوا في البلوى سواء، وقد تطلع أهل الشمال إلى زعيم ينقذهم مما كانوا فيه، فوجدوه في صورة زعيم عسكري هو «عرابي باشا»، وتطلع أهل الجنوب إلى زعيم ينقذهم مما حل بهم، فوجدوه في صورة زعيم ديني هو «محمد أحمد».

فالثورة العرابية كانت من أجل مصر، وكانت ضد الطُّغْمة الحاكمة من الشركس، والأرناءود، والترك، والثورة المهدية لم تكن ضد مصر، بل كانت ضد هذه الفئة الباغية التي تمسك في مصر والسودان بمقاليد الحكم، وقد التزم المهدي -في بياناته ومنشوراته- بهذا الخط، وكان في تعبيره واضحًا وضوحًا لا يقبل الشك.

- **يَقُولُ المَهْدِيُّ:**

«... إن هؤلاء الترك لما بَسَطَ الله عليهم النعم، ومَدَّ لهم في العمر، وطول العافية، ظنُّوا أن الملكَ لهم، والأمر بأيديهم، وخالفوا أمر الله ورسوله وأنبيائه ومن أمرهم بالاقتداء بهم، وحكموا بغير ما أنزله الله، وغير ما شرعه سيدنا محمد ﷺ، وسبوا دين الله، ووضعوا الجزية في رقابكم مع سائر المسلمين، وكل ذلك لم يأمرهم به الله، ولا رسوله، ومع ذلك أمهلهم الله، وبسط عليهم النعم، فلم يتفكروا حتى خذلهم الله، وسلبهم ثوب الملك، والهيبة، بتعديهم حدود الله، فانظروا الآن كيف صاروا عندكم، ومكنكم الله من نواصيهم، وأورثكم أرضهم، وديارهم، وأموالهم، مع آلة صولتهم، وقد أهلكهم الله بالغرور والأماني. أتريدون أن تكونوا مثلهم؟ أو تهلكوا كما هلكوا؟ أم تريدون أن يغضب الله عليكم، ويستبدل قومًا غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم،

فتنقلبوا على أعقابكم بعد أن مَنَّ الله عليكم، ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فتوبوا إلى الله، واشكروا نعمه عليكم؛ فإن النعم وحشية، فقيدوها بالشكر.

إن الترك كانوا يسحبون رجالكم، ويسجنونهم في القيود، ويأسرون نساءكم، وأولادكم، ويقتلون النفس التي حرمها الله بغير حقها، وكل ذلك لأجل الجزية، التي لم يأمر الله، ولا رسوله بها، ومع ذلك لم (يرحموا صغيركم، ولم يوقروا كبيركم).

كيف نسيتم هذا كله؟ وتخلفتم عن الجهاد في سبيل الله، ولم تأخذكم الغيرة على الدين وانتهاك محارمه؟ ومع إهانة الترك لكم، وذُلِّكم إليهم، كنتم سامعين طائعين منقادين لأمرهم حيثما أمروا، فكيف إذا أظهرني الله من جود فضله وكرمه؟ ألا توافقون على إقامة الدين، وهلاك القوم الكافرين؟»[(١)] اهـ.

وكان من أسباب الثورة العرابية: سوء الحالة الاقتصادية، وتدهور الأوضاع المالية بسبب الديون التي اقترضها إسماعيل، وجلبت على البلاد الخراب والفقر، هذا فضلًا عن فداحة الضرائب، وعدم توزيعها توزيعًا عادلًا، وتحصيلها بوسائل القهر والإرهاق، فانضم الأهلون إلى الثورة بمجرد قيامها.

وكان من أسباب ثورة المهدي: فرض الضرائب على الأهالي، وزادها ثِقَلًا أنها لم تكن موزعة بالقسط، بل كانت شديدة على الفقراء، خفيفة على الأغنياء، وفوق ذلك؛ فقد استعملوا في تحصيلها منتهى القسوة والعنف، حتى إن الرجل ليبيع متاعه، وكل شيء؛ ليدفع الضريبة الباهظة، « ... فإن عجز يُطْرَحْ أرضًا على وجهه، وتدقُّ أربعة أوتاد، وتربطْ كل يدٍ من يديه، وكل رجل من رجليه إلى وتد منها، ويقف الجلاد يجلده بالسياط، حتى يدمي جسده، أو يُلْقَى مكتوفًا في قيظ الهاجرة، ولظى الشمس المتوقدة يلهب جسده، أو أنهم لَيَضَعُونَ في سراويله هِرًّا بعد أن تُغَلَّ يداه، ويترك الهر

---

(١) «منشورات المهدية» ص(٤٠ - ٤٢)؛ المنشور الصادر في ٢٤ شوال ١٢٩٩هـ.

داخل سراويله، وأن المرأة كانت تُحْبَسُ إذا تأخر زوجها، أو وليها عن وفاء الأموال الأميرية، وتبقى في السجن إلى أن يدفع ما عليه، فيضطر للدفع مهما كلفه ذلك».

وشر من ذلك كله، مما لم يكن له مثيل في غير السودان؛ أن هؤلاء المأمورين لم يكتفوا بالضرائب الرسمية، بل فرضوا على الأهالي إتاواتٍ غيرَ رسميةٍ، يُحَصِّلُونَهَا مع الضرائب؛ وذلك بسبب أن أكثر الولاة الذين تَوَلَّوْا شئون السودان كانوا لا يهتمون في الغالب إلا بالانتفاع بوظائفهم، فيفرضون على المديرين أموالًا باسم الهدايا، فَيُضْطَرَّ المديرون إلى استرجاعها من مأموري المراكز الذين تحت إدارتهم، وهؤلاء يفرضونها على الأهالي أضعافًا مضاعفة؛ لأجل وفاء ما عليهم، والاحتفاظ بالبعض لأنفسهم.

وقد ساعد ـ أيضًا ـ على تدهور الأحوال الاقتصادية في السودان احتكار الحكومة تجارة العاج، وهو من أهم مصادر الثروة في السودان، وقد وقع هذا الاحتكار في عهد «غوردون» أيام ولايته الأولى، فاستأثرت الحكومة بالأرباح الطائلة التي كانت تعود إلى أصحابها من أهل التجارة والحرفة، فنقموا من الحكومة هذا الاحتكار، وسخطوا عليها، وهؤلاء التجار كانوا سادة السودان الحقيقيين، فكان هذا العمل المنطوي على الظلم هو النواةَ الأولى للثورة المهدية، أضِفْ إلى هذا ذلك الأسلوبَ العنيف الذي اتخذه «غوردون» في منع تجارة الرقيق دون مراعاة للظروف الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تتطلب منه الكياسة، ومعالجة هذا الأمر بالأناة والتدريج؛ حتى لا ينهارَ النظام الاجتماعي مرة واحدة.

«وقد ذكر الكولونيل لونج بك Long bye أن غوردون حين تولى حكم السودان، كان الأمن واليسار يسودانِهِ، ولما غادره كان ينوء تحت أعباء الديون، والثورةُ تتمخض في أحشائه».

* * *

وكان من أسباب الثورة العرابية التدخل الأجنبي في شئون الحكم، وسيطرة المستشارين الأجانب على مقاليد السلطة في مصر، وقد أصبح هؤلاء الأجانب في

النهاية أصحابَ الكلمة النافذة، والسلطةِ الفعلية، وأصبح الخديوي، والحكومة في أيديهم ألعوبة.

وكان من أسباب الثورة المهدية تدخل الأوربيين في شئون الحكم، وتوليهم المناصب الهامة؛ فإن هؤلاء الأجانب لم يكونوا صادقي النية، وكانوا يثيرون بأعمالهم روح الحقد والكراهية، وكان من رأي المهدي: «... إلقاء تبعة تلك المظالم والمصائب على عاتق الحكومة المصرية؛ لأنها استخدمت أولئك الأجانب والدخلاء، وولتهم أمور العباد، فحَكَّمُوا سيوفهم في رقابهم، وأتوا ما أتوه من الظلم، وقتل النفوس، وهتك الأعراض، وكان من الواجب أن تتجسس أعمالهم، وتتنسم أخبارهم، حاسبة السودان عضوًا من أعضائها، يؤلمها ما يؤلمه، ولكنها أهملت هذا الواجب، وكان إهمالها دليلًا على تركها حبلها على غاربها، وترك مقادير السودان تجري في أعنتها. إذن ليس بدعًا انتفاض أهل السودان عليها، بل البدع والغرابة ألا ينتفضوا ويثوروا لخلع النير القاسي، وقلب تلك الهيئة الحاكمة التي أبلغت أرواحهم حناجرهم، ولم تعمل عملًا يُصْلِحُ دنياهم، ويستجلب رضاهم، بل وكلت أمورهم إلى أناس يعتبرون السود عبيدًا أَرِقَّاءَ، ولا يفرقون بينهم وبين العجماوات، ومن العبث أن يرضى المرء بالهوان إذا كان قادرًا على إصلاح حاله، وإسعاد أهله ...».

- يقول الدكتور جلال يحيى:

«كان السودانيون مسلمين متمسكين أشدَّ التمسك بدينهم، وكانوا بطبيعة الحال لا يعترفون لغير المسلم بأي حق في ولاية أمورهم، فماذا يكون الأمر عندما يكون هذا الحاكم نصرانيًّا أجنبيًّا يستخدم القوة كوسيلة وحيدة للتفاهم، وإصدار أوامرَ تتعارض مع الدين والتقاليد والعرف؟».

لقد كان هذا التدخل الأجنبي سببًا من أسباب الثورة العرابية، وكم كتب صاحِبَا مجلة «العروة الوثقى» مُنَدِّدَيْنِ بهذا التدخل، ألم يقل الشيخ حسن العدوي لرئيس

المحكمة التي تحاكمه بسبب اشتراكه في الثورة: «أُعْلِنُ إليك الساعة أن الخديوي الذي أسلم وطنه، واستسلم لأعدائه، مستحق للعزل»(١).

---

(١) وقصة ذلك: «أن إنجلترا وفرنسا تآمرتا على عزل الخديوي «إسماعيل»، وضغطتا على السلطان لعزله، فصدر المرسوم بذلك عام ١٢٩٧ هـ، وعُيِّنَ مكانه ابنه «توفيق»، الذي علم أن بقاءه مرهون برضا الأجانب عنه، فاستسلم لهم، وسمح بإقامة عدة مؤسسات مالية اقتصادية أوربية، مما أثار نقمة الجيش بجانب التأخر في دفع المرتبات، وجمود طائفة من الضباط المسلمين عند رتب معينة، فقدَّم أحمد عرابي، ولفيف من الضباط مذكرة إلى الخديوي توفيق يطالبونه بعزل وزير الحربية عثمان رفقي باشا، وإصلاح نظام الترفيع في ضباط الجيش، فأمر رئيس الوزراء باعتقالهم، ومحاكمتهم، لكن الجيش اقتحم مقر المحكمة، وأخرج ضباطه، وانطلقوا في مظاهرة إلى قصر عابدين، مجددين مطالبهم، فعزل الخديوي عثمان رفقي باشا، واختير مكانه محمود سامي البارودي، وتعددت المواجهات بين الخديوي والضباط، وساندت بريطانيا وفرنسا الخديوي ضد الشعب المصري، والجيش، ووعدته بحماية عرشه بالقوة، ورحل الخديوي إلى الإسكندرية؛ ليكون بمقربة من الحماية الأجنبية، ثم ضرب الإنكليز الإسكندرية في ١١ يوليو ١٨٨٢م، وأشعلوا فيها النيران، ونزلت إليها القوات الإنكليزية؛ حيث جرت مذبحة بشرية للمصريين المدافعين عنها، وتوجه الخديوي إلى قصر رأس التين، حيث استقبله قائد الأسطول الإنكليزي «سيمور»، وهنأه قناصل الدول بسلامته.

وأسرع عرابي بجيشه إلى الإسكندرية للدفاع عنها، ولما تمكن الإنكليز من احتلالها انسحب عرابي بجيشه إلى كفر الدوار؛ حيث أقام التحصينات هناك، وأرسل عرابي إلى الخديوي قطارًا خاصًّا؛ ليعود به إلى القاهرة، فرفض، وانحاز إلى الإنكليز، وأعلن دخوله في حمايتهم، ثم أصدر منشورًا بعزل أحمد عرابي من منصبه كوزير للجهادية، وطالب الجيش بمخالفته، وعصيان أوامره.

وفي يوم ٦ رمضان سنة ١٢٩٩ هـ، الموافق ٢٢ يوليو ١٨٨٢م، انعقد مؤتمر عام في ديوان الداخلية، «وبعد تلاوة الأوراق المعروضة للتذاكر في شأنها صدرت فتوى شرعية من الشيخ العارف بالله شيخ الإسلام والمسلمين السيد محمد عليش، وشيخ الإسلام الشيخ حسن العدوي، والشيخ الخلفاوي، وغيرهم من العلماء بمروق الخديوي توفيق باشا من الدين مروق السهم من الرمية؛ لخيانته لدينه ووطنه، وانحيازه لعدو بلاده. ورأينا توقيف أوامر الخديوي، وما يصدر من نظاره «وزرائه» الموجودين معه في الإسكندرية، كيف كانت، ولأي جهة من الجهات، وعدم تنفيذها؛ حيث إن الخديوي خرج عن قواعد الدين الحنيف، والقانون المنيف».

واستطاع اللورد دفرين السفير البريطاني في عاصمة الخلافة، استطاع في النهاية استصدار قرار من الصدر الأعظم يعلن فيه عصيان عرابي، وخروجه على دولة الخلافة، وتلقف الإنكليز هذا القرار، فطبعوا منه الملايين، ووزعوه على كل من يعرف القراءة، وبهذا أصبح عرابي يحارب في ثلاث جبهات، لا في جبهة واحدة؛ الإنكليز، والسلطان، والخديوي.

وحشد عرابي قواته في كفر الدوار، وأقام فيها التحصينات، وفكر بردم قناة السويس؛ كي لا يعبرها =

ثم ألم يُفْتِ شيوخ الأزهر بخروج الخديوي توفيق عن الشرع.

فلم يكن غريبًا من المهدي أن يقف نفس الموقف، وأن يوجه إلى الخديو إنذارًا يُنَدِّدُ فيه بهذا التصرف[1].

* * *

= الإنكليز، ويهاجموه من الشرق، لكن ديليسييس تعهد لعرابي بأن من المستحيل أن يدخل الإنكليز قناة السويس؛ احترامًا لحيادها، فلم يقم عرابي بردمها، كما كان ينوي، وخان ديليسبس وعده، وليس هذا بمستغرب منه، وهو الذي أرسل إلى من يدعى «البابا» يقول له بمناسبة فتح قناة السويس: «الآن أصبح الطريق إلى قلب العالم الإسلامي مفتوحًا»، وعبر الأسطول الإنكليزي قناة السويس، وتقدم من الإسماعيلية؛ حيث أنزل قواته، وأسرع عرابي لملاقاتهم، والتقى الطرفان في «التل الكبير»، في رمضان ١٢٩٩ هـ، لكن الخيانة عادت من جديد؛ لتعلب دورها بأيدٍ مصرية؛ فهذا محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب يخون الوطن والثورة، ويتولى - نيابةً عن الإنكليز - تثبيط همة المجاهدين في المعركة، والضابط «علي خنفس» يخون وطنه، فيُطلع العدو على خطة الدفاع، ومواطن الضعف في هذه الخطة.

لقد أحيط بعرابي من كل ناحية، وأطبق ليل الخيانة على جو المعركة؛ فلم يعد إنسان يعرف إنسانًا على حقيقته؛ فترجل الفارس عن جواده، وعاد إلى القاهرة؛ ليحاكم هو ومن معه، ثم يصدر الحكم بإعدامهم، ثم استبدلوه بالنفي المؤبد» اهـ. باختصار من «الأصول الفكرية»، ص(١١٨ - ١٢٩)؛ وانظر: «الخيانة هزمت عرابي» تأليف عادل أحمد سركيس، ولأكثر المؤرخين المصريين وجهة نظر سلبية تجاه حركة عرابي؛ حيث يصفونه بقلة العلم، و«الغفلة» السياسية، بجانب أن حركته كانت وطنية مصرية خالصة، وليست إسلامية؛ وكما تورط الخديوي في صداقة القناصل الذئاب؛ فقد تورط عرابي أيضًا في صداقة المستشرقين الذئاب؛ وبخاصة «بلنت» الذي تزوج حفيدة الشاعر «بيرون» الذي كانت قصائده تؤجج الروح الصليبية للأوربيين ضد الدولة العثمانية؛ وهي «آن بلنت» التي قتل أبوها أثناء مهمة تجسسية في الدولة العثمانية، فجعلت مهرها الانتقام لأبيها، والقضاء على الدولة العثمانية الإسلامية، وتقدم «بلنت» بهذا المهر؛ وانظر تفصيل ذلك في كتاب «التحفة الندية في الفتنة العرابية»، للأستاذ أحمد سعيد نونو.

(١) «السابق»، «١٦٢ - ١٦٧» بتصرف.

الْمِصْرِيُّونَ وَثَوْرَةَ الْمَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ

لقد كان التفاعل الثقافي والفكري قائمًا بين مصر والسودان منذ عهد سلطنتي «دارفور»، و«الفونج»، وكان الطلبة السودانيون يُبْتَعَثُونَ إلى الأزهر لتلقي العلم، ولا يزال في الجامع الأزهر رُواق يحمل اسم «دارفور، وسنار» إلى اليوم.

وكان في حلقة الشيخ «محمد عبده» أربعة وثمانون طالبًا سودانيًّا يتلقون العلم؛ كما كان الشيخ إسماعيل الكردفاني - مؤرخ سيرة المهدي - من علماء الأزهر، وفكَّر جمال الدين الأفغاني في إرسال الشيخ محمد عبده إلى السودان؛ ليعمل مع المهدي، وحُقِّق مع الشيخ محمد عبده بتهمة جمع الأسلحة، وإرسالها إلى السودان، ولما سأل الإنكليز الشيخ محمد عبده عن حركة المهدي، وكونها تهدد مصر بالخطر، قال: «لا خطر على مصر من حركة المهدي؛ إنما الخطر على مصر من وجودكم فيها، وإنكم إذا غادرتم مصر، فالمهدي لن يرغب في الهجوم عليها، ولن يكون في هجومه أدنى خطر، وهو الآن محبوب من الشعب المصري؛ لأنهم يرون فيه المخلِّص لهم من الاعتداء الأوربي، وسينضمون إليه عند قدومه»[(١)]. وكان المئات من المصريين، قد نُفُوا إلى السودان بسبب توجههم الوطني[(٢)].

وكان الكثير من قادة الجيش المصري وضُبَّاطِهِ وجنوده يرفضون قتال إخوانهم السودانيين، وقد فرَّ الكثير منهم إلى معسكر المهدي، وخالفوا أوامر القادة الإنكليز بقتل وضرب أبناء دينهم[(٣)].

وقد ذكر العميد كامل الشرقاوي أن عدد المصريين الذين انضموا إلى المهدي

---

(١) «الأصول الفكرية»، ص(٩٤ - ٩٥).
(٢) «السابق»، (١٧٢ - ١٧٣).
(٣) «السابق»، ص(٩١).

السوداني لا يقل عن ثمانية عشر ألفًا[١].

● يقول المؤرخ المصري عبدالرحمن الرافعي:

لا يسعنا في الجملة إلا القول بأن الثورة العرابية كانت من أسباب نجاح ثورة المهدي. لقد كان تأثير الثورة العرابية في الثورة المهدية مُضَاعَفًا. كان تأثيرها إيجابيًّا وسلبيًّا معًا؛ فقد شجع عرابي، بعد قيامه بحركته، المهديَّ على تقليده - كما يقول المؤرخ الرافعي - ولم تتمكن مصر، بسبب الثورة العرابية، من إرسال القوة الكافية لإخماد حركة المهدي.

وفي ذلك يقول الشيخ إسماعيل عبدالقادر الكردفاني المؤرخ المعتمد لسيرة المهدي: «لعل المانع من إرسال جيش مصري عَدَمُ تمكن الخديوي بسبب ما دهاه من قيام أحمد باشا عرابي عليه، وخروجه عن طاعته، وشروعه في محاربته، وذلك بعد أخذه فتاوى علماء مصر بمقاتلة ومحاربة واليها إذ ذاك، ووجوب الخروج عليه ومحاربته».

كل ذلك كان صحيحًا، ولكن الأهم من ذلك كله أن رجال الجيش المصري لم تكن لديهم رغبةٌ في قتال خسيس تفرضه عليهم حكومة ظالمة خائنة، وقد رأينا ما كتبته العروة الوثقى بخصوص هذه القضية، وكيف حذرت المصريين من قتال إخوانهم في العقيدة، أضف إلى هذا ما كان يشعر به الضابط المصري، والجندي المصري، من أن سفره إلى السودان كانت الغاية من التخلص من الجنود والضباط الذين شاركوا في الثورة العرابية... كما أنهم - كرجال ثورة وطنية - كانوا لا يؤمنون بضرورة فرض سلطة الخديوي على ثوار السودان، فَكَثُرَتْ حوادث الهرب من المعسكر بِشَكْلٍ اضْطَرَّ الحكومة إلى ربطهم بالسلاسل، وكان رجال المدفعية يطلقون مدافعهم في اتجاه خاطئ، وكان العساكر يقولون لقادتهم: «لم يؤت بنا إلى هنا إلا لإعدامنا؛ لأننا عرابيون»، ولهذا كانت الأكثرية منهم تنضم إلى صفوف المهدي. وقد كان المهدي على علمٍ تام بما يدور في مصر ذاتها، فقد كان له فيها من يوافيه بأنبائها

(١) «العذاب الذي لاقاه المسلمون على أيدي الغرب»، ص(١٤٣).

وأحوالها، وإن أحد هؤلاء الأعوان لَيكتب إليه بأن: «... الأحوال في مصر تنتقل من سيئ إلى أسوأ، وأن حكومة مصر لا تقوى على مد يد المساعدة إلى السودان، وأنها - أي الحكومة المصرية - منقسمة إلى قسمين: أحدهما وطني، والثاني خديوي ...».

لقد كان هناك تشابه كبير بين الحركتين العرابية والمهدية، كانت كل منهما تطالب بإصلاحات إدارية واجتماعية، وكانت كل منهما ضد الوضع القائم والتدخل الأجنبي، وكانت كل منهما عبارةً عن حركة تحرر إسلامية(١)، ولم يُخْفِ عرابي، وهو في منفاه، تأييده ومَيْلَهُ للمهدي، كما كان العرابيون يفكرون في التحالف معه؛ لإقامة جبهة موحدة ضد التدخل العسكري البريطاني.

ولا يَسَعُ الباحث المدقق بعد هذه المقارنات والحقائق إلا تأكيد أهمية هذا الدور الذي لعبته الحركة العرابية في ثورة المهدي، وفي تمكين هذه الثورة من النجاح الذي أحرزته ضد الإنجليز والخديوي، وفي هذا التقارب والتعاطف بين الزعيمين السوداني والمصري.

يقول مؤلف «كرري»: وقد أمر المهدي أتباعه بعد قتل غوردون، وأوصاهم قائلًا: «الغوردون يا إخواننا لا تقتلوه، بل اقبضوا عليه حيًّا، وأحضروه إلينا؛ لأن فيه فائدةً عظيمةً؛ فإنا نريد أن نسلمه لأهله، ونفدي به رجلين عظيمين؛ هما: الزبير وعرابي». اهـ(٢).

كانت مصر والسودان بلدًا واحدًا كما قدمنا، وما يصيب أحدهما ينعكس على البلد الآخر تلقائيًّا وطبيعيًّا، كان الحكم في البلدين واحدًا، والظلم الواقع عليهما مشتركًا، والشعور بالثورة والسخط ضد هذا الحكم عامًّا ... لم يكن السودان بعيدًا عن الأحداث التي وقعت في مصر، بل شارك فيها مشاركة إيجابية ... كانت الفرقة السودانية في الجيش المصري في مقدمة الفرق الثائرة، وكان قائدها «الأميرالاي عبدالعال حلمي» أحد زعماء الثورة، وكان الضباط السودانيون في هذه ظهيرًا لحركة

(١) وهذا - بالنسبة للثورة العرابية - محل نظر، إذ غلب عليها النزعة الوطنية، بخلاف حركة المهدي السوداني.
(٢) الأصول الفكرية، ص(١٧٣- ١٧٤).

المهدي في القاهرة، وكانوا يُمِدُّونَهُ بالمعلومات والأخبار الهامة ... والمنفيون الذين نُفُوا إلى السودان من القاهرة، وكانوا في جملتهم من الوطنيين أصحاب الاتجاهات الإصلاحية؛ ماذا كان دورهم في الحركة المهدية؟ وهل يُعْقَلُ وجود هؤلاء في الخرطوم دون أن يُسْهِمُوا بآرائهم في الثورة، وفي إعلان الغضب والسخط على حكومتهم في القاهرة؟ ... إن قصة الشيخ أحمد العوام[1] لأنصعُ دليلٍ على إسهام هؤلاء في الثورة، واشتراكهم الفعلي في الحركة، ووقوفهم وراء المهدي يساندونه بكلِّ قوة.

لقد كانت المعركة واحدة في كل من الخرطوم والقاهرة؛ ولهذا كان الضُّبَّاط والجنود المصريون يفرون بأسلحتهم إلى معسكر المهدية، وقد أعدم «غوردون» ضابطين مصريين كبيرين في الخرطوم بتهمة الخيانة، قبل سقوطها في يد الثورة»[2].

---

(١) كان في داخل مدينة الخرطوم - في أثناء الحصار - عالم أزهري من رجال الثورة العرابية اسمه الشيخ أحمد العوام، كان قد نفي إلى السودان بعد فشل هذه الثورة، يقول نعوم شقير في تاريخه: «وكان في الخرطوم رجلٌ من خطباء الثورة العرابية، يقال له: أحمد العوام، وهو مصري الجنس، حسيني الانتساب، وقد نفي إلى الخرطوم؛ بسبب الثورة العرابية، فرأى الثورة المهدية في وجهه، فتشيع لها، وقد اطلعت على رسالة له بتاريخ ١٧ من رمضان سنة ١٣٠١ هـ، ١١ يوليو ١٨٨٤م، سماها «نصيحة العوام»؛ فإذا هي ثورة محضة، وقد أعلن فيها تشيعه للثورة المهدية، وكرهه للحكومة الخديوية (أي المصرية)، ومما قاله مشيرًا إلى موظفي حكومة الخرطوم: «... وطالما جادلتهم بالحق سرًّا، ونصحت لهم حتى في دار الحكومة جهرًا على مرأى ومسمع من وكيلها النصراني - يقصد جوردون - أن يسعوا في الصلح بين الطائفتين المتحاربتين عملًا بأمر الله، فلم أجد بينهم محقًّا، كلا ولا ساعيًا بكلمة حق؛ لإخماد هذه الحرب بين المسلمين، وعباد الله المؤمنين...، ولذلك اعتزلتهم، وجميع المحصورين، إلا من جاءني يسعى وهو يخشى، فإني أبذل له محض النصح، حتى يفتح الله بيننا، وهو خير الفاتحين».
وقد أثرت أقواله تأثيرًا سيئًا في نفوس أهل الخرطوم، فسجنه جوردون، وكبّله بالحديد ..!
ثم عفا عنه، وجعله معاونًا في الحكمدارية براتب ١٥٠٠ قرش في الشهر، ولكنه ما لبث أن عاد إلى سابق عادته من انتقاد أعمال الحكومة، وتهييج أهل البلاد ضدها، ولما جاء الخبر بزحف المهدي على الخرطوم، وأعلن جوردون خبر قدوم الجيش الإنكليزي، جاهر الشيخ العوام في تكذيب جوردون، وتصديق المهدي، ولم يقتصر على ذلك، بل أغرى إحدى النساء، فرمت جمرة من شباك على معمل الفشكليك (الذخيرة) بقصد إحراقه، فسقطت الجمرة على بعض الأوراق، فأحرقتها، فشعر بها الحارس فأطفأها... واعترفت المرأة أن أحمد العوام هو الذي أمرها بذلك، فأمر جوردون بقتله، فقتل في سراي الشرق...!»؛ وانظر: «الأصول الفكرية»، ص(٩٢ - ٩٣).

(٢) «السابق» ص(١٣٠).

إِرْهَاصَاتٌ بَيْنَ يَدَيِ ادِّعَاءِ الْمَهْدِيَّةِ

١ ـ هيَّأت حركة الجهاد الفولاني التي قادها الشيخ «عثمان بن فودي» في «نيجيريا» لظهور المهدي، وبَشَّرَتْ بأن المهدي المنتظر على وشك أن يظهر في المشرق، وحَثَّتْ أتباعها على تأييده؛ مما أدى إلى هجرة بشرية كبيرة من تلك المنطقة إلى سودان وادي النيل والحجاز، للمشاركة في هذا الحدث العظيم، فلما أعلن «محمد أحمد» مهديته خاطب الناس بما كانوا يترقبونه.

٢ ـ حينما اتصل محمد أحمد بالشيخ القرشي «ود الزين» أحد شيوخ السمانية؛ جدد له العهد، وزوجه ابنته «النعمة» التي أنجبت له ابنه عليًّا، وقال عنه الشيخ القرشي فيما يُرْوَى عنه:

«إدِّيته بنتي وفرسي، وأنا موعود فرسي دَهْ يركبه المهدي، وَشَيَّخْتُهُ وادِّيته الإجازة»[١].

٣ ـ قال شيخه القرشي قبل وفاته مباشرة: «إن زمن ظهور المهدي المنتظر قد حان، وإن الذي يشيد على ضريحي «قبة»، ويختن أولادي هو المهدي المنتظر»[٢].

«والتقطها محمد أحمد بأذنيه المرهفتين، وإحساسه المرهف ... سيكون هو المهدي؟ ولِمَ لا أكون أنا؟ إن بناء القبة أمر سهلٌ، وختان الأولاد أكثر سهولة، وما دام ثمن ذلك هو المهدية، فَلِمَ لا أكون أنا المهدي؟! لقد جمع المهدي ثلاث مئة من أتباعه، وذهب معهم إلى «الحلاوين»، وشيَّد القُبَّةَ من اللَّبِنِ الأخضر، وختن أنجال الشيخ القرشي بعد أن أخذ العهود على كثير من الناس بتصديق دعواه قبل أن يصدع بها.

٤ ـ وبينما كان يعمل في بناء القبة: إذ وفد عليه رجل فارع القامة، قوي الجسم، وما كاد نظره يقع على محمد أحمد، حتى سقط مغشيًّا عليه، ولم يُفِقْ من غشيته إلا بعد ساعة، ولما أفاق عاد، فنظر إلى محمد أحمد، وتَقَدَّمَ لمصافحته، فأُغْمِيَ عليه

(١) «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر» ص(٣٦٢).
(٢) «السودان بين يدي غوردون وكتشنر» ص(٧٤).

مَرَّةً ثانية، ثم أفاق وتقدم إلى محمد أحمد حبوًا على الأرض، فأخذ يده، وشرع في تقبيلها، وهو يرتعد ويبكي، فقال له محمد أحمد: من أنت يا رجل، وما شأنك؟ قال:

«يا سيدي، أنا عبدالله بن محمد ود تورشين، من قبيلة التعايشة، وقد سمعت بصلاحك في دار الغرب، فجئت لأخذ الطريقة عنك، وكان لي أبٌ صالحٌ من أهل الكشف، وقد قال لي قبل وفاته: إنك ستقابل المهدي، وتكون وزيره. وقد أخبرني بعلامات المهدي وصفاته، فلما وقع نظري عليك، رأيت فيك العلامات التي أخبرني بها والدي بعينها. فابتهج قلبي لرؤية مهدي الله، وخليفة رسوله، ومن شدة الفرح الذي شملني أصابني الذي رأيته».

لقد صادف هذا الكلام قبولًا وهوًى في نفس محمد أحمد، وجاء مطابقًا تمامًا لما ذكره الشيخ القرشي، وكان لهذا الإيحاء[١] - أو هذه التمثيلية - التي قام بها التعايشي دورٌ خطير في إعلان ظهور المهدي»[٢].

وقد ذكر - علي المهدي - في كتابه «جهاد في سبيل الله» ما خلاصته: إن المهدي كان ينتوي إعلان المهدية بعد بلوغه سن الأربعين؛ لأن كل الأعمال العظيمة تأتي بعد تمام الأربعين، ولكن مجيء الخليفة عبدالله التعايشي قدمها سنتين، ولو تأخر - أي التعايشي - عشر سنوات، لتأخرت - أي المهدية - عشر سنوات[٣].

---

(١) وقد صادف هذا «الإيحاء» - فيما يبدو - شخصية «قابلة للإيحاء» suggestible، فكان ما كان. انظر: «موسوعة علم النفس والتحليل النفسي»، للدكتور فرج عبدالقادر طه، ص(١٣٢).

(٢) «الأصول الفكرية»، ص(٢٩ - ٣٠)، (١٥٣ - ١٥٤).

(٣) يقول د. عبد الودود شلبي - حفظه الله - معلقًا على قول «عليّ المهدي» هذا:
«وهو قولٌ يجعل من «التعايشي» رأس هذه الفكرة، والعقل المخطط لهذه الدعوة.
وقد حفظ محمد أحمد للتعايشي هذه اليد، وجعله الوارث لدعوته، وخلافته من بعده، وهدد كل من يتناول أعماله وتصرفاته بالنقد «... لأن جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب؛ لأنه أوتي الحكمة، وفصل الخطاب، ولو كان حكمه على قتل نفس منكم، أو سلب أموالكم.. ومن تكلم في حقه، ولو بالكلام النفسي؛ فقد خسر الدنيا والآخرة، ويخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة، =

لقد كان «محمد أحمد» رجلًا من هذا النوع الشديد الحساسِيَةِ، كانت فيه شفافية ورقة، وكان أكثر إحساسًا بآلام وطنه وشعبه، وهذا النوع من الناس يمكن التأثير عليه بسهولة، واستغلال جوانب الخير والصلاح في نفسه، وإقناعه بأي عمل يعتقد فيه الصلاح والخير لأمته، وقد استغل فيه هذه الناحية رجلٌ كان على النقيض منه في ذلك كله، كان هذا الرجل هو «عبدالله التعايشي»، وكان التعايشي هذا مغرمًا بالأمجاد والبطولة، تَوَّاقًا إلى النفوذ والسلطة، وقد بذل والده عناية خاصة في تعليم أبنائه، ولكنه وجد عناءً أكبرَ مع عبدالله، فعبدالله اشْتُهِرَ بانصرافه عن علوم الدين، وحفظ القرآن، ولكنه كان يتشوق دائمًا إلى أخبار الغزوات والبطولات، واشْتُهِرَ منذ أيامه الأولى بالشجاعة والبأس، وانضم «للزريقات» في حربهم مع الزبير رحمت باشا، ووقع أسيرًا في يد الزبير الذي أمر بقتله، لولا أن تشفع له الفقهاء ورجال الدين، ولكن روحه المتعطشة للمجد رأت في ـ الزبير رحمت باشا ـ وقت أن كان في أوج قوته وشهرته، أنه المهدي المنتظر.

فأرسل إليه مبشرًا أنه حلم حُلْمًا رأى فيه: أن الزبير هو المهدي المنتظر، وأنه ـ (أي عبدالله) ـ سيكون وزيره.

فرد عليه الزبير زاجرًا، وأمره بعدم تكرار هذا الحديث معه.

وقد كان والد عبدالله التعايشي ممن يشتغلون بالتنجيم والسحر، وكان «التعايشة» إذا أرادوا غزو جماعة أخرى استشاروه قبل القيام بهذا الغزو، فلما تقدمت به السن،

= وقد أتانا خبرٌ من الخضر ـ عليه السلام ـ أن الأولياء اجتمعوا في بيت المقدس، يقولون: الحمد لله الذي أظهر المهدي، وجعل عبد الله وزيره، ثم وجد (أي الخضر) اجتماع الشياطين، وهم يقولون: كان عيشنا بالغش والخداع، فأتى المهدي، وقطع علينا عيشنا، ولولا أن عبد الله وزيره، لكنا نجد في المهدية دخولًا».

«فحيث علمتم ذلك يا أحبابي أن الخليفة عبد الله مني، وأنا منه، فتأدبوا معه كتأدبكم معي، فجميع ما يفعله بأمر النبي ﷺ، أو بإذن منا لا بمجرد اجتهاد منه، ولا هو عن هوى، بل هو نائب عنه ﷺ في تنفيذ أمره»، اهـ. من «الأصول الفكرية»، ص(٢٤٥ ـ ٢٤٦).

عهد بحرفته تلك إلى ولده عبدالله، فاشتغل بهذه الحرفة فترةً من الزمن، ولكن طموحه لم يكن ليتوقف عند «ضرب الرمل»، وقراءة «الطالع»، وكتابة التعاويذ والتمائم.

إن في الرجل ذكاءً وقوةَ شخصية، لقد سئم هذه الحرفة، وهاجر بحثًا عن المجد. كانت أحاديث المهدية تملأ الجو، وكان تَوَقُّعُ ظهور المهدي حديثًا على كل لسان، فذهب إلى الشيخ محمد شريف نور الدائم شيخ الطريقة السمانية، وقال له: أنت المهدي المنتظر، لقد كرر ما فعله مع «الزبير»، وكأن الرجل كان يبحث عن أي مهديٍّ، ويستعجل ظهوره؛ ليصبح مستشاره ووزيره.

وقد رفض الشيخ محمد شريف هذه اللعبة، ثم قال له قبل أن يغادر بيته: إذا كنت تبحث عمن يقول بذلك: فعليك بتلميذي السابق محمد أحمد[١].

٥ ـ ومن البشائر المزعومة ما ذكره المهدي السوداني في قوله:

«ومن البشائر التي حصلت لنا أنه حصلت لنا حضرة نبوية (حضرها) «الفقيه عيسى»، فيأتي النبي ﷺ، ويجلس معي، ويقول للأخ المذكور: شيخك هو المهدي، فيقول الفقيه «عيسى»: إني مؤمنٌ بذلك، فيقول ﷺ: «من لم يصدق بمهديته، فقد كفر بالله ورسوله. قالها ثلاث مرات، ثم يقول له الأخ المذكور: يا سيدي يا رسول الله، الناس من العلماء يستهزئون بنا، والخشية ـ أيضًا ـ من الترك، فيقول ﷺ: «والله، والله، إن قَوِيَ يقينكم، إن أشرتم بأدنى قشة تنقضي حوائجكم».

ثم يقول الشيخ عبدالله: يا سيدي الشيخ الطيب، نحن مُصَدِّقُونَ بمهدية شيخنا، والناس ليسوا بمصدقين، فيقول الشيخ الطيب: إن شيخك حين ولادته (عرفه) أهل الباطن والحقيقة، فلما أتم الأربعين يومًا عرفته النباتات والجمادات أنه المهدي، ثم يقول الشيخ الطيب: الطريقة فيها الذل والانكسار، وقلة الطعام، وقلة الشراب، والصبر، وزيارة السادات، فتلك ستة، والمهدية ـ أيضًا ـ فيها ستة: الحرب، والحزم، والعزم،

(١) وقد صدر منه ذلك في سياق الزجر لا الإقرار كما تقدم ص(٤٥٩).

والتوكل، والاعتماد على الله، واتفاق القول، فهذه الاثنا عشر لم تجتمع إلا لك.

ثم يأتي الشيخ «التوم»، ويلقي عليَّ السلام بالمهدية، ويقول: اجتَهِدْ في قومك على أن يكون الكبير أبًا، والصغير ولدًا، والمساوي أخًا، ثم يأتي جدنا الشيخ البصير، ويلقي عليَّ السلام بالمهدية، ويتكلم بكلام، فهمنا منه أنه قال لي: اشدُد الحزام على سنة النبي العدنان، ثم يأتي الشيخ القرشي: فيلقى عليَّ السلام بالمهدية، ويتكلم بكلامٍ المفهومُ منه أنه يقول: «كُنْ ذاكرًا، ولمن معك ساترًا»، فيقول الشيخ عبدالله: يا سيدي، الناس منكرون مهدية شيخنا، فيقول: إن النبي ﷺ أعلمني قبل مماتي بأن شيخك هو المهدي بذاته.

ثم يقول: «وهذه الليلة المذكورة التي حصلت فيها هذه الحضرة المباركة غرة شعبان[١] ليلة الأربعاء.

ثم تلى علينا جميع الأحوال إلى دخول مكة، ومنازعة أهلها، ومبايعة الضعفاء والغرباء أولًا، ثم مبايعة الشريف ملك مكة، وجميع أشرافها»[٢].

* * *

(١) وهي الليلة التي أعلن فيها مهديته.

(٢) «منشورات المهدية»، ص(١٢).

إِعْلَانُ الْمَهْدِيَّةِ وَتَوَابِعُهُ

في غُرَّةِ شعبان ١٢٩٨ هـ (الموافق ٢٩ يونية ١٨٨١م) أعلن محمد أحمد السوداني أنه المهدي المنتظر، وإمام الزمان الذي تجب طاعته على جميع البشر، وجاء في بيانه الأول قوله:

«وحيث إن الأمر لله، والمهدية المنتظرة أرادها الله، واختارها للعبد الفقير محمد بن السيد عبدالله، فيجب التسليم والانقياد لأمر الله ورسوله.

وبعد هذا البيان فالمؤمن يؤمن ويصدق؛ لأن المؤمنين هم الذين يؤمنون بالغيب، ولا ينتظرون لِأَخْبَارٍ أُخَرَ، فمن انتظر بعد ذلك، فقد استوجب العقوبة؛ لأنه ﷺ قال: «من شك في مهديته فقد كفر بالله ورسوله» ثلاثًا[(١)].

لقد صَدَّق أهل السودان ـ خاصتهم وعامتهم ـ دعوة المهدي، وتوافد إليه الزعماء، وشيوخ القبائل مبايعين من كل حَدَبٍ وصوب، قائلين: «نبايعك على المهدية، وإن لم تكن مهديًّا، نبايعك على قتال الحكومة، وخلع طاعتها».

إذن، كان «البطل» الذي يبحث عنه السودان قد استكمل كل عناصر الثورة، وكانت الظروف قد هيأت المناخ العام للتجاوب معه، لقد بدأ بالطوفان، ولا أمن ولا أمان إلا في سفينة إمام الزمان.

إن مما يَلْفِتُ النظرَ أن «إعلان المهدية»، اقترن بدعاوى خطيرة لا خطام لها، ولا زمام، والعجيب أن الناس في غمرة التعطش لخروج القائد الْمُنْتَظَرِ انقادوا انقيادًا أعمى لتلك الدعاوى العريضة التي صَرَخَ بها المهدي في قوة، وعنف، وحماسٍ، وإصرار، وها هو ذا يخاطب شعبه المقهور قائلًا:

«فإلى قاطبة العلماء، والتجار، والعمد، والفقراء، والمساكين، من عبد ربه محمد

(١) «منشورات المهدية»، ص(٢٦ ـ ٢٧).

المهدي بن عبدالله:

اعلموا ـ وفقني الله وإياكم إلى اتباع الكتاب والسنة ـ أن قد أيدني الله ـ تعالى ـ بالخلافة الكبرى، وأعلمني سيد الوجود ﷺ بأني المهدي المنتظر، وخلفني بالجلوس على كرسيه مِرارًا، بحضرة الخلفاء والأقطاب والخضر، وأوتيت سيف النصر من حضرته ﷺ، وأعلمت أنه لا يُنْصَرُ عليَّ معه أحد، وأيدني الله ـ تعالى ـ بالملائكة المقربين، وبالأولياء من لَدُنْ أبينا آدم ـ عليه السلام ـ إلى وقتنا هذا، وكذلك الجن إلى وقتنا هذا، بعد أن أسلموا، وصدقوا بمهديتي.

وفي حال الحرب يحضر مع الجميع أمام جيشي سيد الوجود ﷺ بذاته الكريمة، ثم قال ﷺ:

«إن الله قد جعل لك على المهدية علامة، وهي الخال على خدي الأيمن، وجعل علامة أخرى، تخرج رايةٌ من نور، وتكون معي في حالة الحرب، يحملها عزرائيل ـ عليه السلام ـ، فيثبت الله بها قلوب أصحابي، وينزل الرعب في قلوب أعدائي، فلا يلقاني أحد بعداوة إلا خذله الله ـ تعالى ـ، ولو كان الثقلين الجن والإنس.

فمن له سعادةٌ صدَّق بأني المهدي المنتظر. ولكن لا يخفى أن البيان لا يهدي، وإنما الهادي هو الله ـ تعالى ـ، وقد أعلم اللهُ نبيه ﷺ بأن ليس عليه إلا البلاغ، وأنه لا يهدي من أحب، ومعلوم أنه لا يكذب على الله ورسوله إلا من لا خلاقَ لَهُ عند الله ـ تعالى ـ، ومن يعلم علم يقين أن متاع الدنيا قليل، لا يزن عند الله جناح بعوضة، لا يؤثره على ما عند الله ـ تعالى ـ، ولو آثر عليه لزال، كأن لم يكن، ولولا أني على نور من الله، وتأييد من رسول الله، لما قدرت على شيء، ولا ساغ لي أن أحكي بشيء، وما أخبرت عن النبي ﷺ بما أخبرت إلا بأمر منه ﷺ.

وقد أخبر ﷺ مرارًا أن من شك في مهديتي كفر بالله ورسوله، وأن من عاداني كافر، وأن من حاربني يخذل في الدارين، وأمواله وأولاده غنيمة للمسلمين.

وقد بشرني ﷺ أن أصحابي كأصحابه، وأن عوامهم لهم رتبة عند الله - تعالى - كرتبة الشيخ عبدالقادر الجيلاني، ولا تغتروا بالخطب التي ألفها في ذمّنا وتكذيبنا علماء السوء ممن وقع في عرضنا، فهؤلاء ممن أدخل الله في قلوبهم النفاق؛ بحب المال وحب الجاه، ولا يخفى عليكم أن العلماء ينكرون كثيرًا من أمور المهدي؛ لأنه ليس معتقدهم الذي يظنونه، ولأنه يخالف مذاهبهم[١]، والتصديق بالمهدي أمر صعب، لا يُوَفَّق إليه إلا من أدركه الله بسابق سعادة.

وحيث إن الأمر لله، والمهدية أرادها الله، واختارها للعبد الفقير محمد بن السيد عبدالله،، فيجب التسليم، والانقياد لأمر الله ورسوله.

وبعد هذا البيان، فالمؤمن يؤمن ويُصَدِّقُ؛ لأن المؤمنين هم الذين يؤمنون بالغيب، ولا ينتظرون لإخبارٍ آخر، فمن انتظر بعد ذلك، فقد استوجب العقوبة، ومن لم تنفعه الموعظة طهَّرَهُ السيف»[٢].

«هذا وقد أخبرني سيد الوجود ﷺ: بأن من شك في مهديتك، فقد كفر بالله ورسوله - كررها ﷺ ثلاث مرات - وجميع ما أخبرتكم به من خلافتي على المهدية، فقد أخبرني به سيد الوجود ﷺ يقظة في حال الصحة، خاليًا من الموانع الشرعية، لا بنوم، ولا بجذب، ولا سكر، ولا جنون، بل متصفًا بصفات العقل، أقفو أثر رسول الله ﷺ، بالأمر فيما أمر به، والنهي عما نهى عنه.

وإني لا أعلم بهذا الأمر، حتى هجم عليَّ من الله ورسوله من غير استحقاق لي بذلك[٣]، فأمره مطاع، وهو يفعل ما يشاء ويختار، وحكم نبيه ﷺ كحكمه، ولما

---

(١) وهذا الكلام يعكس مدى تأثر المهدي السوداني بتصور ابن عربي عن المهدي؛ حيث قال في وصفه: «يرفع المذاهب من الأرض، أعداؤه مقلدة العلماء؛ لما يرون من الحكم بخلاف ما ذهب إليه أئمتهم»؛ كما في «الفتوحات المكية»، (٣٢٨/٣).

(٢) «منشورات الإمام المهدي»، (٣٨/٢).

(٣) «السابق»، (٦/١).

تكاثرت منه البشائر والأوامر لي في هذا المعنى، امتثلت قيامًا بأمر الله، وقد كنت قبل ذلك ساعيًا في إحياء الدين، وتقويم السنة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولَمَّا حصل - يا أحبابي - من الله ورسوله أمر الخلافة الكبرى، أمرني سيد الوجود ﷺ بالهجرة إلى «ماسة» بجبل قدير، وأمرني أن أكاتب بها جميع المكلفين أمرًا عامًّا[1]، فكاتبنا بذلك الأمراء، ومشايخ الدين، فأنكر الأشقياء، وصَدَّقَ الصديقون الذين لا يبالون بما لقوه في الله من المكروه، وما فاتهم من المحبوب المشتهى، بل ناظرون إلى وعده - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

- **ويحكي المهدي تفاصيل إحدى الحضرات المزعومة - في ليلة الإعلان عن مهديته - قائلًا:**

«ثم يأتي النبي ﷺ، ومعه الشيخ عبدالقادر الجيلاني لابسًا جُبَّةً، وعليها سيور، فيقول الشيخ عبدالله: يا سيدي، يا رسول الله، الناس منكرون الجبة، ويتعففون عنها، أفهي سنةٌ واردةٌ عنك أم لا؟

فيقول ﷺ: «وذات الإنسان رُقَعٌ: في رأسه رقعة زرقاء، وباطن شفتيه رقعة حمراء، وأسنانه رقعة بيضاء، وأظفاره رقعة صفراء، ولولا أني خشيت عليك أن تكون مغشيًّا لأريتك جُبَبَ الخلفاء الأربعة.

وهذه الليلة المذكورة التي حصلت فيها هذه الحضرة المباركة غرة شعبان ليلة الأربعاء.

ثم تلى علينا جميع الأحوال إلى دخول مكة، ومنازعة أهلها، ومبايعة الضعفاء والغرباء أولًا، ثم مبايعة الشريف ملك مكة، وجميع أشرافها»[2].

كانت المراسلات أسلوب المهدي المفضل؛ فقد بعثَ المهديُّ - ثم خليفته من بعده -

(١) «السابق»، (١/١١٢).

(٢) «منشورات المهدية»، ص(١٧).

مئاتِ الرسائل التي بيَّن فيها مقاصد دعوته؛ ومن ذلك رسالته إلى محمد رءوف باشا الحاكم العام للسودان، أو «الحكمدار»، التي قال فيها: «من عبد ربه محمد المهدي إلى الحكمدار بالخرطوم. وبعد، فالأمر المطلوب كشفه أن دعائي الخلق إلى السنة، والهجرة بالدين أمرٌ من سيد الوجود ﷺ، فمن تَبِعَ صار من المقربين، ومن خالف خذله الله في الدارين، فمن لم يصدق طهره السيف، ومن أتانا بالعداوة يأخذه الله؛ إما بالخسف، أو بالغرق، وفيما ذكرته كفاية يكتفى به أهل العناية[١] ...»، فجمع رءوف باشا العلماء، وأطلعهم على كتاب محمد أحمد، فالتمس بعضهم له عذرًا بأنه **قد حصل له جذب**، ولكنهم أجمعوا على ضرورة القبض عليه قبل اتساع الخرق[٢].

فندب رءوف باشا لهذا الأمر أحد معاونيه؛ وهو محمد بك أبو السعود، وحين ذهب إلى المهدي وجده جالسًا، وحوله جماعة من تلامذته، فسَلَّمَ عليه، وقال: «إن الحكمدار بلغه أمر الدعوة التي قمت بها، وأرسلني لآتي بك إليه، وهو ولي الأمر الذي تجب طاعته».

فأجابه محمد أحمد: «أما ما طلبته من الوصول معك إلى الخرطوم، فهذا مما لا سبيل إليه، وأنا ولي الأمر الذي تجب طاعته على جميع الأمة المحمدية».

فقال له أبو السعود: «ارجع عن هذه الدعوى؛ فإنك لا تطيق حرب الحكومة، ولا نرى معك من يقاتلها»، فقال محمد أحمد وهو يبتسم: «أنا أقاتلكم بهؤلاء»، وأشار إلى أصحابه، ثم التفت إليهم، وقال: «أأنتم راضون بالموت في سبيل الله؟»، فقالوا كلهم: «نعم، رَاضُونَ بالموت في سبيل الله، وباذلون أرواحنا في رضا الله، ورسوله، ومهديه»، فالتفت المهدي إلى أبي السعود، وقال له: «قد سمعت ما أجابوا به، فارجِعْ إلى ولي أمرك في الخرطوم، وأخبره بما رأيت[٣]، ورب الكعبة لقد كلفت برسالة

(١) «سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي»، ص(١٢٠)، نقلًا عن «الأصول الفكرية»، ص(١٧٥ - ١٧٦).
(٢) «جغرافية وتاريخ السودان»، ص(٦٥٢)، نقلًا عن «الأصول الفكرية»، ص(١٧٦).
(٣) «السابق»، ص(٦٥٢).

سأؤديها، ولو وقفت أمامي كل عقبات الدنيا ...».

فلما قفل أبو السعود راجعًا إلى الخرطوم، قال المهدي لأنصاره: «أيها الناس، إن الترك رجعوا لطلب المدد، وسيعودون لحربنا، فمن كان منكم خائفًا على أولاده، وأمواله، فليخرج منا، فنحن مسامحون له، وبيعتنا التي في أعناقكم ليس عليكم فيها حرج، فإن سلمنا فعودوا إلينا، فقالوا جميعًا بلسانٍ واحد: يا سيدنا، نحن بايعناك على الموت، ورضينا بذلك، ولا نرغب بأنفسنا عن نفسك، بل نحن معك حيثما تَوَجَّهْتَ، فَمُرْ بما شئت فنحن لك سامعون، ولأمرك مطيعون يا خليفة رسول الله»[1].

وصدقت نبوة المهدي، فقد عاد محمد أبو السعود على رأس قوة مسلحة للقبض عليه، وحمله مكتوفًا إلى الخرطوم، فكمن لها المهدي وأنصاره، فأبادوها جميعًا إلا القليل، ولم يكد أبو السعود يرى ما حل بجنوده، حتى رجع هاربًا من هذا الجحيم.

وتعرف هذه الواقعة بـ«واقعة أبا»، وكانت يوم الجمعة السادسَ عشرَ من شهر رمضان سنة ١٢٩٨ هـ، وقد انتشر خبرها في السودان انتشار البرق، ونُسِجَتْ حولها الكرامات والخوارق، ودارت حولها القصص والحكايات، وفي ذلك يقول الشيخ الكردفاني: «إذا تأملت بعين البصيرة، وطابت منك السريرة، اتضح لك أن موقعة «أبا» من حيث كونُها حصلت يوم الجمعة السادسَ عشرَ من شهر رمضان، قريبة الشبه من غزوة بدر؛ في كونها حصلت يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان، وفي نقص هذه الواقعة عن البدرية بيوم؛ أعني أن تلك يوم السابع عشر، وهذه يوم السادس عشر؛ سر لطيف، ومنهج من التأديبات الإلهية منيفٌ، يدركه الحاذق اللبيب، ويفطن لدقيق مرماه الفطن الأريب»[2].

● يقول الدكتور عبد الودود شلبي ـ حفظه الله ـ:

---

(١) «السابق»، ص(٦٥٣).

(٢) «سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي»، ص(١٣٤)، نقلًا عن «الأصول الفكرية»، ص(١٧٧).

«كانت هذه الواقعة هي الشرارة التي أشعلت النار في السودان كله، وقد تبوأ المهدي ـ بعد سحقه لقوات الحكومة ـ قمة الزعامة الروحية والوطنية، وقد أيقن المهدي بعد هذه المعركة، أن الحكومة لن تتركه يهنأ بانتصاره عليها، كما أنها ـ أي الحكومة ـ لم تزل قوية ومحتفظة بهيبتها، والواجب يفرض عليه أن يحسب حسابها، ويستعد لملاقاتها وقتالها. إنه الجهاد والثورة، والجهاد والثورة في حاجة إلى تعبئة، وهذه التعبئة لا بد من أن تكون شاملة وعامة، وأية تعبئة من هذا النوع لا بد أن تكون مبرراتها قويةً، وصيغتها مقدسة، وهنا تلعب براعته الفكرية، وتمتزج الزعامتان الروحية والوطنية في هذا النداء الموجه إلى الأمة، يدعوها فيه إلى الهجرة.

لم يَقُلْ لهم: تعالوا نجتمع لقتال الحكومة، بل قال لهم: هيا إلى الهجرة، وللهجرة دلالات ومعانٍ كثيرةٌ؛ إنها تعني الخروج من النفس والأهل والمال، طاعةً لله، ورسوله؛ كما أنها ـ أي الهجرة ـ تحتل في تاريخ الإسلام مكانة رفيعة، وفي هذا يقول المهدي: «... لا يخفى عزيز علمكم ما ورد في فضل الهجرة، وقد أعاد الله لنا الزمن الماضي من الصحابة، وأعلمني ﷺ بأن أصحابي كأصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ، وبَشَّرَني أن من يصحبني قبل بلوغ أصحابي اثني عشر ألفًا فهو من أنصار الله، وفي رضاء الله ورسوله، وأن له سبعين حجة، ومعلومٌ أن نصر دين الله في القِلَّةِ ـ مع أسبقية الصحبة ـ فضله عظيم، ولا سيما، وقد قال الله ـ تعَالَى ـ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨]، ومفهوم أن من لم يكن كذلك، فليس من أهل الصدق، وقد قال الله ـ تعالى ـ في فضل الهجرة: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النحل: ٤١]»[1].

وبعد معركة «أبا» «هاجر المهدي إلى «قدير» بكردفان؛ ليبتعد عن السلطة، ويحتمي

---

(١) «الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني»، ص(١٧٨).

بأتباعه في مكان آمن، ومن هناك امتدت دعوته إلى بحر الغزال بين أكبر القبائل الجنوبية؛ قبيلة «الدينكا»، وإلى جنوب كردفان، وكانت الهجرة لقدير للاحتماء بجبل «ماسا»، وقد روى المهدي أن حركته إليه إنما كانت هجرة أَمَرَهُ بها في رؤيةٍ رسولُ الله ﷺ.

وفي «قدير» تتابع أتباعه وافدين إليه يبايعونه، وينتظمون في سلك دعوته، مستعدين لمواجهة ما توقعوه من تجريدات عسكرية لم تنقطع، ولم تفلح أي منها في مواجهته؛ مما زاده مكانة، ومنعة، وقوة، ولقد انشغلت الحكومة التركية المصرية بثورة «عرابي» عام ١٨٨٢، وكان في ذلك مجال نظم المهدي فيه جيوشه على قيادات ثلاث: «الراية الزرقاء» تحت قيادة «عبدالله التعايشي» خليفته من بعده، وقوتها من رجال غرب السودان؛ «الراية الخضراء»، وعلى رأسها «علي الحلو»، وتُمَثِّلُ رجال الجزيرة؛ ثم «الراية الحمراء»، وقائدها «محمد شريف»، وتمثل مجموعات النيل، وتيمنًا بالرسول ﷺ، وتقليدًا له، سَمَّى نفسه خليفة رسول الله، وسمى خلفاءه بأصحاب الرايات؛ كفعل الخلفاء الراشدين.

وساقت الحكومة المصرية جيشًا لقتاله بقيادة «جيجلر» باشا البافاري، فهاجمه نحو خمسين ألف سوداني، وهزموه بالسيوف والعصي؛ مما كان له أثر فَعَّالٌ في زيادة الأتباع، واستولى المهدي على مدينة «الأُبَيِّضِ» سنة ١٣٠٠ هـ.

ولا نريد أن نقف كثيرًا عند الحملات والمعارك العسكرية، ولكننا لا بد أن نشير وبسرعة إلى توالي الانتصارات المذهلة التي مَهَّدَت الطريق للزحف على الخرطوم، وقَتْلِ «جوردون»، ذلك الحدث الجلل الكبير، الذي أنهى عهد التركية المصرية في السودان.

لقد أرسلت بريطانيا حملة عسكرية بقيادة القائد الإنكليزي «هكس» باشا للقضاء على الحركة المهدية، ولكنها فشلت وأُبِيدَتْ، وقُتِلَ قائدها، ولئن كانت «أبا» المفتاح

في بدء الدعوة، فإن معركة «شيكان»، التي أبادت حملة «هكس» باشا الكبيرة - كانت بحق بداية النهاية للعهد التركي، وكانت الدافع وراء سياسة الإخلاء التي بُعث من أجلها «جوردون»، ولكن غروره وتخيلاته جعلته يحيد عنها، فيلقى حتفه مقتولًا في الخرطوم، وكانت هزيمة «هكس» في «شيكان» في ٥ نوفمبر ١٨٨٣، كان هكس يتبجح بأن جنده قَادِرٌ على صد السماء بأسنة رماحه، وبصد الأرض بأقدام جنده، وتبارك الذي بيده الملك، هُزِمَ جيشه شرَّ هزيمة، ومات مِيتَةَ الكلاب، وفي العام نفسه ثار الشرق بقيادة «عثمان دقنة»، فأخذ «طوكر» و«سكات». و«عثمان دقنة» هو من حَطَّمَ تشكيلة المربع الأسكتلندي، وألحق هزيمةً نَكْرَاءَ بالبريطانيين[1]، وهكذا مَهَّدَ الطريق للزحف على الخرطوم وحصارها»[2].

وفي نفس الوقت كان «رودلف سلاتين» النمساوي الجنسية حاكمًا لمديرية دارفور سنة ١٨٨١م، باسم الحكومة المصرية، وكان قد أعلن إسلامه، ودخل في طاعة المهدي، واستولى الأنصار على دارفور، وعَيَّنَ المهدي قريبه محمد خالد عاملًا عليها، وظل «سلاتين» باشا في حاشية المهدي مدة اثني عشر عامًا؛ لأنه سلمَ للمهديين في ٢٣ ديسمبر ١٨٨٣م، وبعد القضاء على الحركة المهدية عاد «سلاتين» باشا إلى مصر، وكتب كتابه المشهور «النار والسيف في السودان».

وكانت مديرية بحر الغزال تابعة للإدارة المصرية في الخرطوم، وكان يحكمها ضابط إنكليزي يسمى «لبتون»، وقد حاول الدفاع عن المديرية، ولكن المهدي أرسل

---

(١) وقد سجل ذلك شاعر الإمبراطورية البريطانية «كبلنج» الذي كان يتغنى بأمجاد الإنكليز، ونشرهم الحضارة!، وكان قد اشترك في بعض المعارك ضد المهدي، فانبهر ببسالة أتباعه، وأنشأ قصيدة أسماها (Fuzzy Wazzy) ترجِمت إلى العربية في أكثر من أربعين بيتًا، يقول فيها: إنه شاهدهم يقتحمون نيران المدافع، ويتسابقون إلى الموت، حتى أدخلوا الرعب في قلوب جنود ملكة بريطانيا، ولم يكن يدري «كبلنج» أنهم يتسابقون إلى «الحياة» الخالدة، والحقيقية، ويطلبون الشهادة في سبيل الله، انظر: «حزام المواجهة: حرب التنصير في أفريقيا»، ص(٦٧).

(٢) انظر: «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص(٣٦٣ - ٣٦٤)؛ و«الأعلام»، للزركلي، (٦/ ٢٠).

قوة من الأنصار استولت على بحر الغزال في أبريل ١٨٨٤م، واستسلم لبتون، ومات في الأسر بعد أربع سنوات»[١].

«كان الإنكليز يرتاعون لانتصارات المهدي؛ لأن ذلك يعني انهيار إمبراطوريتهم في الشرق، وسيثور المسلمون عليهم في أفريقيا والهند، وسيحاول الكثيرون تقليده في الثورة على الغرب، إن أمر السودان لا يهم، ولكن العبرة من أحداثه تثير في القلوب الفزع والرعب، وقد تساءلت جريدة «البال مال جازيت» عن السبب في عدم إرسال ضابط كفء؛ ليتولى إجهاض هذه الثورة في المهد، ورَشَّحَتْ لهذا الغرض غوردون الجنرال الذائع الصيت.

كان لغوردون شهرة كبيرة، وكان ملوك العالم يتنافسون لكسب وده؛ ليخدم معهم. كانت شهرة القائد الذي لا يقهر Leader of the ever victorious army، قد سارت بها الركبان؛ فقد خَدَمَ في الصين، وكان بطل حصار «سباستيول» في روسيا، و«الكيب تاون» في أفريقيا، وقاهر جزيرة «موريشيس» في المحيط الهندي، وكانوا يعتبرونه فوق ذلك كله من أبطال المسيحية.

عَوْدَةُ جُورْدُونَ

وصدرت الفرمانات في القاهرة بتعيينه حاكمًا عامًّا على السودان، لم يكن للقاهرة في هذا الترشيح أمر أو نهي، كان على الخديوي فقط أن يسمع ويطيع، لقد سقط في شَرَكِ الخيانة، وتآمر مع الإنجليز على الثورة العرابية، وأصبح - منذ ذلك الوقت - في يد الإنجليز ألعوبة.

لقد بدأت المرحلة الحاسمة في هذه الحرب بين الثورة المهدية، وخصومها في لندن، والقاهرة، والتقى «الصوفيان» وجهًا لوجه على أرض السودان الساخنة، فهل يَسْهُلُ

(١) «أطلس تاريخ الإسلام»، ص(٣٣٧).

عليه ـ كما تقول مجلة العروة الوثقى ـ رقية محمد أحمد المهدي بعدما قام بدعوة عظيمة كهذه؟

«جوردون» يدبر الحيلة

ماذا يفعل غوردون لمواجهة هذا الإعصار، وإخماد هذه النار؟! الحرب؟ وهل تجدي الحرب مع رجال غايتهم الموت؟ لقد كان أنصار المهدي يبكون حنينًا إلى الشهادة، ويستقبلون المدافع بوجوه باسمة، ويُلْقِي الواحد منهم نفسه وسط الألوف من جنود العدو المدججة بالسلاح والذخيرة.

ولكن غوردون لا تعجزه الحيلة؛ لقد تعامل من قبل مع كثيرين عَرف كيف يتغلب عليهم، ولن يكون المهدي ـ كما حدَّثَتْهُ نفسه ـ أخطرَ منهم، وبدأ يفتح ملفاتِهِ، ويُخْرِجُ أسلحته، وهنا نترك المجال فسيحًا أمام الرجلين؛ لنرى كيف يديران المعركة، وكيف كان الحوار بينهما في هذه المرحلة[١].

جُورْدُون يَعْرِضُ الرِّشْوَةَ

فقد قال في أولى رسائله إلى المهدي: «فخر الأمراء المكرمين، وقدوة الأولياء الصالحين، حضرة سيدنا، ومولانا السيد محمد أحمد بن عبدالله ـ حفظه الله آمين.

بعد إهداء السلام، وزيادة التوقير والاحترام لسموكم، نخبر حضرتكم أني قد تعينت واليًا على السودان باتفاقِ كلٍّ من الحكومة الخديوية، ودولة بريطانية؛ لتسوية حال السودان؛ بناءً على ما طرأ عليها في مدة السنين الأخيرة من انتشاب الحروب، وسفك دماء المسلمين، وقطع الطريق على أبناء السبيل، الذين يقصدون التوجه لزيارة

(١) «الأصول الفكرية»، ص(١٩٥ ـ ١٩٦).

قبر النبي[١] ـ عليه السلام ـ، والذين يريدون السعي على معايشهم من التُّجَّار، والمتسببين[٢]، وقد شق علينا ذلك كثيرًا كما نعلم أن حضرتكم لا يخلصكم هذا الأمر؛ فغاية ما نريده الآن من جنابكم يا حضرة السيد أنه باتفاقنا سويًّا ننظر ما فيه حق دماء المسلمين، وسلوك الطرق، ومداولة المواصلات بيننا وبينكم بغاية المحبة والمودة، بحسب ما يرضي الله ورسوله، وأن تأذنوا وتتكرموا بإطلاق الناس المأسورين عندكم من إسلام، ومسيحيين؛ لمناظرة عيالهم، والتوصية بهم، كما أننا شكرنا لفضلكم كثيرًا على صنيع معروفكم معهم، وإن كان حضرتكم تريد أن تكون سلطانًا على «كردفان»، فقد أعطيناها لكم؛ لتكون سلطانًا وأميرًا عليها، وأريد أن ترسلوا واحدًا سفيرًا معتمدًا من طرفكم لأجل مقابلتنا في الخرطوم، والتروي فيما هو لازم بيننا بخلوص النية، وحسن الطوية، ولأجل إعطائه ما هو لازم من عواميد ـ أعمدة ـ، وسلوك التلغراف؛ لتجديد ما سبق إتلافه بواسطة العربان، ومداومة المواصلات بيننا، ويرسل لطرف حضرتكم فرمان من لدن السلطان المعظم بتأييد حضرتكم على حكومة «كردفان»، واعلم يا حضرة السيد أني أريد أن أكون معكم بغاية المحبة والمودة، ولا أقصد إلا كل خير، ورجائي أن تتكرموا علينا برد الخطاب، والله الموفق للصواب. ١٦ ربيع الآخر ١٣٠١ هـ.

غوردون[٣]

المَهْدِيُّ يَرُدُّ: إِذَا أَتَيْتَنَا مُسْلِمًا نُرَبِّيكَ

الحمد لله الوالي الكريم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله والتسليم، وبعد: فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبدالله إلى عزيز بريطانية والخديوية غوردون

(١) يشد المسلمون الرحال قاصدين مكة المكرمة لأداء المناسك والصلاة في حرم الله تعالى، والمدينةَ النبوية للصلاة في الحرم النبوي، فإذا صاروا فيها؛ استحب لهم زيارة قبر النبي ﷺ، لكنهم لا يشدون الرحال قصدًا لزيارة القبر الشريف على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

(٢) هم صغار الحرفيين والتجار.

(٣) «منشورات المهدية»، هامش ص(٣١٩ ـ ٣٢٠).

باشا: وصل جوابك إلينا، وفهمنا ما فيه، والحال أنك تزعم إرادة إصلاح المسلمين، وفتح الطريق لزيارة قبر النبي ﷺ، واتصال المودة فيما بيننا وبينكم، وحل المأسورين من النصارى «والمسلمانين»، وأن تجعلنا سلطانًا على كردفان.

فأقول ـ والأمر لله ـ إني قد دعوت العباد إلى صلاحهم، وما يُقَرِّبُهُمْ من ربهم، وأن يفرغوا من الدنيا الفانية إلى دار البقاء، وليعملوا بما يصلحهم في آخرتهم، وقد كتبت إلى الحكمدارية في الخرطوم، وأنا بـ«أبا» بدعايتي إلى الحق، وبأن مهديتي من الله ورسوله، ولست في ذلك بـ «محتال»، ولا أريد مُلْكًا، ولا مالًا، ولا جاهًا، وإنما أنا عبدٌ أُحِبُّ المسكنة والمساكين، وأَكْرَهُ الفخر، وتَفَخُّرَ السلاطين؛ لما جُبِلُوا عليه من حُبِّ الجاه، والمال، والبنين، وهذا هو الذي صدهم عن صلاحهم، وأَخْذِ نصيبِهم من ربهم، فأخذوا الفانيَ، وتركوا الباقيَ، واشتغلوا بما لا يكون إلا من الفانيات، ولم يسمعوا قول الله ورسوله، ولم يذكروا خبر القرون الذين لم يُغْنِ عنهم ذلك شيئًا، وندموا على قدر الذي تنعموا به، فأيدني الله ـ تَعَالَى ـ بالمهدية الكبرى؛ لدلالتهم إلى الله ـ تَعَالَى ـ، وليتركوا العزَّ الفانيَ، والنعيمَ الفانيَ إلى العزِّ الدائِمِ، والنعيم الأبدي في دار النعيم المقيم، وقد قال المسيح ـ عليه السلام ـ: «ابنوا على موج البحر دارًا لكم»، فلا تتخذوها قرارًا، ومن ظن أنه يخوض البحر من غير بلل، فهو مغرور، وكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا، ويريدها، ويكون له في الآخرة شأن.

فَأَنِبْ إلى الله الباقي، واخْضَعْ لجلاله، واطْلُبْ عِزَّ الآخرة، ولا تَظُنَّ أن هذه الدنيا دارٌ حتى تسعى لملكها وعزها، وكيف من يكون على خلاف سكة رسول الله يفتح زيارة قبره؟ ولم يكن النبي ﷺ ممن يرغب في زيارة الكلاب، كما ورد: «إِنَّ الدُّنْيَا جِيفَةٌ، وَطُلَّابُهَا كِلَابٌ»، ولم يَرْغَبْ في من عَبَدَ غير الله، ونسي الله، وأعرض عن كلامه، وطلب متاع الحياة الفانية.

فإن كنت شفيقًا على المسلمين، فبالأولى أشفق على نفسك، وخَلِّصْهَا من سخط

خالقها، وقوَّمْها على اتباع دين الحق، واتباع سيدنا محمد ﷺ، الذي أحيا ما اندرس من مِلَلِ الأنبياء والمرسلين، وأتى مُصَدِّقًا لما بين يديه من الكتب، فجميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لو حضروا لما سلكوا غير ملته، وكلهم يتمنون أن يكونوا من أمته، وممن حضر بَعْثَتَهُ.

فطَهِّر نفسك أولًا بالدخول في ملته، ثم أشفق على أمته بسلوك سنته، فعند هذا، فأنت الشفيق، ومِن غير هذا فما لك من المحقين رفيق، كيف، وقد قال الله - تعَالَى -: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥،٥٦]. وإننا قد امتثلنا أمر الله، وما نتخذ وليًا إلا الله ورسوله والمؤمنين، وعلى ذلك؛ فقد وُعِدْنَا بالغلبة؛ كما سمعت من قول الله هذا، وما دام الله يقول: ﴿هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾، فلا غلبة لغيرهم ...

فإن رَجَعْتَ عما أنت عليه - من ملة غير الإسلام -، وأنبت إلى الله ورسوله، واخترت الآخرةَ - نَتَّخِذكَ وليًا، وتكونُ من إخواننا، وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله، وتكون ممن امتثل أمر الله ورسوله بعد هذه الآيات، فاستحق الوعد والبَشارة في قوله - تعَالَى -: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ [المائدة: ٦٥]، فبعد هذا تتصل المودة والمحبة فيما بيننا وبينك، وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والإنجيل، وتكون قد اتبعت - باتباع سيدنا محمد ﷺ - عيسى وجميع الرسل والنبيين، وحُزْتَ الخير الأبدي، وإلا حيث علمت أن حزب الله - الذين وليهم الله ورسوله والذين آمنوا - هم الغالبون، فاعلم أن حزب الله واصل إليك، ومزيلٌ لك عما شاركت به الله خالقك، فادعيت ملك عباده وأرضه، مع أن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده الصالحين.

وأما المسلمانيون والمسيحيون الذين دعوت إلى إطلاق سراحهم، فأنا أريد لهم

الصلاح والنفع عند الله، وفي دار الأبد، كما أريده لك، ولكافة عبادة الله، فلا أبعدهم من جنتهم إلى محنتهم؛ فإن الله قد أيدني رحمة للعباد؛ لأنقذهم من الهلاك الذي وقعوا فيه.

وقد أيدني الله ـ تَعَالَى ـ بالأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، وجميع الأولياء والصالحين؛ لإحياء دينه، وقد بشرني النبي ﷺ بأن جميع من يلاقيني بعداوةٍ يخذله الله ويهزمه.. فلا تغترَّ فَتَهْلِكَ؛ كما هلك إخوانك، فافهم وسَلِّم تَسْلَمْ ...

وأما الهدية التي أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير، فجزاك الله خيرًا، وهداك إلى الصواب، واعلم أنه كما كتبنا لك أنا لا نرغب متاع الحياة الدنيا وزينتها، وإنما هي قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب، وهاهي عائدة إليك مع ما نرغبه من اللباس لأنفسنا، وأصحابنا[1] الذين يريدون الآخرة، ويرغبون فيما عند الله من الخير الباقي الأبدي.

ثم إن مثل هديتك هذه عندنا كثير، ولكن أعرضنا عنها؛ طلبًا لما عند الله، وأقول لك في ذلك كما قال سليمان ـ عليه السلام ـ لبلقيس: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٦، ٣٧].

واعلم أنك إذا أتيتنا مسلمًا نربيك، فنريك من النور ما يطمئن به قلبك، ويزول به طمعك في الدنيا وما فيها، وبعد هذا البيان، فإن اهتديت، وسلمت لي، واتبعتني، حزت شَرَفَي الدنيا والآخرة، وفزت بأجرك وبأجر جميع من اتبعك، وإلا هلكت، وكان عليك إثمك، ومثلُ آثام جميع من اتبعك[2].

---

(١) وقد كان المهدي أرفق مع هذه الرسالة (كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى، الذين لا يبالون بما فات من المشتهيات؛ طلبًا لعالي الدرجات؛ وهي: جُبة، ورداء، وسراويل، وعمامة، وطاقية، وحزام، وسُبْحَة؛ فإن أنبت إلى الله، وطلبت ما عنده، لا يصعب عليك أن تلبس ذلك، وتتوجه لدائم حظك)، اهـ. من «منشورات الإمام المهدي»، (١١٧/٢).

(٢) «السابق»، (١٠٩/٢)، «منشورات المهدية»، ص(٣١٩ ـ ٣٢٧).

جُورْدُونُ يُهَدِّدُ وَيَتَوَعَّدُ

من غوردون باشا والي السودان إلى محمد أحمد المتمهدي:

وصلني كتابك الركيك العبارة، العاري عن المعنى، الدال على سوء نيتك، وخبث طويتك، وعن قريب سَتُبْلَى بجيوشٍ لا طاقة لك بها، وتكون أنت المسئولَ أمام الله عما يُسْفَكُ من الدماء؛ كما أنك أنت المسئولُ الآن عمن أعميتَ قلوبهم، وغَشَّيْتَ بصائرهم، ويَتَّمْتَ أطفالهم، وخَرَّبْتَ ديارهم، وكنت لا أرى حاجة إلى مخاطبة رجل مِثْلِكَ جاحد النعمة، عادم الذمة، لكني تعلقت بأذيال الأمل، راجيًا من الله ـ عز وجل ـ أن يتجلى على فكرتك الخامدة، فتلقى النصيحة بيد القبول، وتعلو متن سلطنةٍ مَكَّنْتُكَ منها، وكان دون نيلها خَرْطُ الْقَتَادِ، وهاأنا مستعدٌّ لقدومك، ومعي رجالٌ أقطع بهم أنفاسك، والعاقل من تدبر، والسلام[1].

غوردون

الْمَهْدِيُّ يَرُدُّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾

من العبد المعتصم بمولاه محمد المهدي بن عبدالله إلى غوردون باشا ـ هداه الله قبل أن يتلاشى ـ آمين:

نُعْلِمُكَ أن جوابك رَدَّ المُحَرَّرِ منا وصلَ إلينا، وفَهِمْنَا مضمونه، وقد عذرناك في عدم إذعانك وإجابتك لنا بالطاعة؛ كما طلبنا منك؛ وذلك لأنك لم تَدْرِ الحقيقة التي نحن عليها، وبحسب مقامنا، ودلالتنا إلى الله، وشفقتنا على جميع خلق الله، حتى من هو مثلك، لم يَطِبْ قلبنا بصرف النظر عنك، ولا زلنا نتدارجك عسى الله أن يهديك إلى سواء السبيل؛ فأجب داعي الله، واغتنم سلامتك من الشر الوبيل، فقد رأيت ما حل

(١) «جغرافية وتاريخ السودان»، ص(٧٨٣)، نقلًا عن «الأصول الفكرية»، ص(٢٠٢ ـ ٢٠٣).

ونزل، ولا زلت ترى، ولا طاقة لك ولا لأعوانك بحرب جند الله - عز وجل -، وقد ذكرت أن «عبدالقادر ولد أم مريوم» حبيبك، وتقبل قوله ونصيحته، وطلبت إرساله إليك، فعلى ماذا؟ هل أنت منيب إلى الله؟ وقصدك التسليم لنا على يد المذكور؟ أم أنت على تصميمك في إعراضك ومعاداتك لربك؟ فأفدنا لنعلم طلبك له هو على أي الوجهين، ونرسله لك إن رأينا في ذلك صلاحًا للدين.

وأقول لك: إن عزة الإسلام خيرٌ لك، وأبقى لدوام احترامك في الدارين؛ فَتَحَلَّ بها إن عقلت.

«فإن أراد الله سعادتك، وقبلت نصحي، ودخلت في أماننا، وضماننا، فهو المطلوب، وإن أردت أن تجتمع على الإنجليز الذين أخبرنا رسول الله بهلاكهم، نوصلك إليهم، فإلى متى تكذيبنا، وقد رأيت ما رأيت؟ وقد أخبرنا رسول الله بهلاك من في الخرطوم قريبًا، إلا من آمن وسَلَّمَ، يُنَجِّيهِ الله؛ ولذلك أحببت لك ألا تهلك مع الهالكين؛ لأنا قد سمعنا مرارًا فيك الخير، ولكن على قدر ما كاتبناك للهداية والسعادة ما أجبتنا بكلام يؤدي إلى خيرك؛ كما نسمعه من الواردين والمترددين، والآن ما يئسنا من خيرك وسعادتك، وسنكتب لك آية واحدة من كتاب الله؛ عسى الله أن يُيَسِّرَ هدايتك، وطالما كاتبناك لترجع إلى وطنك، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[١] [النساء: ٢٩].

* * *

(١) «منشورات الإمام المهدي»، (٢/٢٥١، ٢٥٣).

صَلَفٌ وغُرُورٌ حَتَّى النِّهَايَةِ

«المهدي يزحف إلى العاصمة(1)، وجيوشه المُظَفَّرَةُ تهتف مُهَلِّلَةً، ولكنه ـ أي المهدي ـ لا يريد حربًا، إنه يريد أن يدخل المدينة صلحًا، فكتب إلى غوردون في اللحظات الأخيرة قائلًا: «لولا مراعاة حسم دماء المسلمين؛ لضربت صفحًا عن مخاطبتك، فسلم تسلم أنت ومن معك، وقد نصحتك وأنصحك، وإلا فالحرب بعد ذلك»(2).

فكتب إليه غوردون قائلًا: «لست أبالي بك ولا بجيوشك، سترى ما يحل بك؛ ففيَّ الكفاءة لأن أُعَرِّفَكَ قدرك، ولا تَغُرَّنَّكَ كثرَةُ أنصارك»(3).

وأقبل التاسع من ربيع الآخر سنة ١٣٠٢ هـ، الموافق ٢٦ من يناير ١٨٨٥م، فأمر غوردون أن تُعْزَفَ موسيقى الجيش، وكأنما أحس الرجل بِدُنُوِّ أجله، فأراد أن يسمع أغنية الوداع، ولكن الجيش الذي يريد أن تُعزف موسيقاه لا يقدر أفراده على التنفس، لقد أجهدهم الحصار، والجوع، واليأس، وأصبح الموت أمنية يتمناها الكثيرون من أفراد هذا الجيش...

ما هي نهاية كل هذا؟ لقد وجه غوردون هذا السؤال إلى نفسه، إنها ولا محالة قدرٌ مكتوب في سِجِلِّ الأزل أن الخرطوم سَتُؤْخَذُ عَنْوَةً، ولكنني لن أُنَالَ حيًّا، ثم أمر بوضع الديناميت في أقبية القصر، كي يُنْسَفَ بمن فيه إذا لزم الأمر، ولكنَّ الانتحار جريمة، إنها أكبر هزيمة يتعرض لها بطل، وقد كان غوردون في نظر نفسه بطل الأبطال، فكيف ينهزم؟!

لقد انهارت قِلَاعُ الظلم، وسقطت الحصون في يد الأنصار حصنًا بعد حصن،

---

(1) كان جوردون قد طلب إرسال حملة عسكرية؛ للقضاء على حركة المهدي، فجهزت بريطانيا الحملة، وأرسلتها إلى السودان، ولكن المهدي سارع إلى مهاجمة الخرطوم قبل وصول الحملة؛ «الموسوعة الحركية»، (٢٣١/١).

(2) ، (3) «جغرافية وتاريخ السودان»، ص(٨٤٧)، نقلًا عن «الأصول الفكرية»، ص(٢٠٥).

وتلاشى كل أثر للمقاومة في صفوف العدو، وحانت اللحظة الرهيبة بين غوردون وضحاياه في ساحة القصر.

كان غوردون واقفًا عند رأس السلم بثيابه العسكرية، وما كاد يرى جموعَ الأنصار متجهةً نحوه؛ حتى صاح فيهم قائلًا[١]:

- أين محمد أحمد؟

إن غوردون لم تفارقه كبرياؤه حتى هذه اللحظة، وهو موقف شجاع لا يُلَامُ عليه في الحقيقة.

- يَا مَلْعُونُ، هذا يومك!

وقذف أحد المهاجمين بحربة لتستقرَّ في الصدر، وسقط القائد الذي لا يقهر مُضَرَّجًا بدمائه على سُلَّمِ القصر[٢].

وكانت نهاية فصل من فصول المأساة التي تعرض لها الإسلام في القرن التاسعَ عشرَ، وبداية فصل جديد من فصول تلك الغارة التي شُنَّتْ على الإسلام والمسلمين في كل أرض وقطر؛ فقد تناولت الصحف في إنجلترا وأوربا مأساة الخرطوم بالتعليق والوصف، واتسمت لهجتها بالغضب، والتهديد، والعنف، وَحَرَّضَتْ حُكُومَاتِهَا على العمل، والأخذ بالثأر.

وكان يومًا حزينًا في لندن؛ فقد مات «شهيد المسيحية» البطل، وتوقفت ساعة (بج بن) عن العمل، وكانت الملكة فكتوريا - كما يصف سكرتيرها - في حالة فظيعة:

كانت تَهمُّ بالخروج حين تلقت برقية «وفاة غوردون»، فخرجت إلى مسكني على

(١) «جغرافية وتاريخ السودان»، ص(٨٦٧)، نقلًا عن «الأصول الفكرية»، ص(٢٠٦).

(٢) وكان ذلك في ٢٦ يناير ١٨٨٥م، وحزَّ أتباع المهدي رأس «جوردون»، وحملوها على حربة، وبعثوا به إلى المهدي، الذي كان يأمل إلقاء القبض عليه حيًّا؛ ليبادل به «أحمد عرابي» الذي أجبر على مغادرة مصر إلى المنفى. انظر: «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة»، (١/٣١٥).

مسافة ربع ميل، وسارت إلى حجرتي شاحبةً تَرْتَجِفُ، وقالت لزوجتي - التي جزعت لمرآها -: «فات الآوان» ...

أجل، فات الآوان، وتحرر السودان، ورفرفت أعلام المهدية فوق ربوعه في كل مكان ...(١)

لقد كان سقوط الخرطوم بين يدي المهدي آنذاك إيذانًا بانتهاء العهد العثماني على السودان، وانقاد السودان كله للمهدي من يومها، ولم يَبْقَ له منافس.

وآثر المهدي المنتَصِرُ أن لا يسكن مساكن الذين ظلموا في الخرطوم، فسار بناقته من «أبي سعد» إلى «أم درمان»، وحيث حطت رحالها بنى مسكنه ومسجده، متيمِّنًا بذلك بما فعله الرسول ﷺ(٢)، وسَمَّى أم درمان «البقعة المباركة»، وجعلها عاصمة الدولة المهدية(٣).

ومضى المهدي في تأسيس دعائم دولته الوليدة، فأقام في المنطقة التي امتد إليها نفوذه نظامًا إسلاميًّا، طَبَّقَ تعاليم الإسلام في جميع نواحي الحياة، فَعَيَّنَ قضاةً من صفوة العلماء الأتقياء، ونوابًا عنه في الأقاليم، ممن يثق بصلاحهم وعلمهم، وعهد إليهم مباشرة القضاء، والأحكام، والفصل بين الناس، ونظم الشئون المالية، وعيَّنَ جباة لجمع الزكاة، وقَسَّمَ الغنائم كما تقضي الشريعة الإسلامية، وجعل بيت المال موردًا لرزق المسلمين، يُعْطَى كل واحد منهم بمقدار حاجته هو وعائلته، ولم يتقيد بمذهب خاصٍ في أحكامه، ولكنه ادَّعى الاجتهاد، وطَرَحَ العملَ بالمذاهب الأربعة، وقال: «إن مذهبه هو الكتاب والسنة، والتوكل على الله»، وكان قضاته يرجعون إلى ما كان عليه المسلمون في حياتهم الأولى، ثم أرسل إلى خديوي مصر يدعوه إلى تطبيق أحكام الإسلام، وعدم اتخاذ الكافرين أولياء(٤).

(١) «الأصول الفكرية»، ص(٢٠٥ - ٢٠٧).
(٢) «ندوة الفكر الإسلامي المعاصر»، ص(٣٦٥).
(٣) «السابق»، ص(٣٩٢).
(٤) انظر: «الموسوعة الحركية»، (١/٢٣٣ - ٢٣٤).

مِنَ المَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ إِلَى خِدِيوِي مِصْرَ

«من العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبدالله إلى والي مصر:

لا يخفى على من نَوَّرَ الله بصيرته، وشَرَحَ صدره، أن الدين الذي يكون المتمسك به ناجيًا عند الله هو دين الإسلام، الذي جاء به نبينا محمد ﷺ ونزل به القرآن من الملك العلَّام، قال - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال - تَعَالَى -: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وما سوى ذلك من الأديان فضلال يدعو إليه الشيطان حزبَهُ ليكونوا من أصحاب السعير.

ومن منحه الله عقلًا يوازي به بين الخبيث والطيب، لا ينبغي له أن يُصَرِّفَهُ إلا فيما ينتج خلاصه عند الله يوم تزل الأقدام، ويشيب الطفل، ويشتد الزحام، وإلا كان أسوأ حالًا من البهائم؛ حيث أضاع حكمة تركيب العقل فيه، ولا سبيل إلى السلامة عند الله إلا باتباع دينه، وإحياء سنة نبيه وأمته، وإماتة ما حدث من البدع والضلال، والإنابة إليه - تَعَالَى - في كل الأحوال، وقد تأكد ذلك في هذا الزمان، الذي عم الفساد فيه سائر البلدان؛ فإن دسائس أهل الكفر التي أدخلوها على أهل الإسلام، وضلالاتهم التي مَكَّنوها من قلوب الأنام، قد أفضت إلى اندراس الدين، وعَطَّلَتْ أحكام الكتاب والسنة بيقين، فصارت شعائر الإسلام غريبة بين الأنام، وتراكمت الظلمات وانتشرت البدع، وأبيحت محارم الإسلام، واشتد الكرب على أهل الإيمان، فصار القابض على دينه كالقابض على الجمر؛ لتراكم البغي والعدوان.

فعند ذلك أظهرني الله طِبْقَ الوعد الصادق رحمةً لعباده؛ لأنقذهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، وأَدُلَّهم إلى الله على هدى منه وتبيان، وطَوَّقَني بالخلافة الكبرى على المهدية، وخَلَعَ عَلَيَّ حُلَلَهَا البهيةَ، وبَشَّرَني سيد الوجود ﷺ بالنصر على كل من يعاديني، ولو كان الثَّقَلَيْنِ، وبأن من يقصدني بعداوة يخذله الله في الدارين، وقَلَّدَني

سيف النصر، وأيدني بقذف الرعب في قلوب أعدائي يسعى أمامي أربعين ميلًا، وأخبرني بأني أملك جميع الأرض، وبأن من شك في مهديتي، فقد كفر بالله ورسوله، ونفسُه ومالُه غنيمةٌ للمسلمين، وبأن الله قد أيدني بالملائكة الكرام، وبالجن أحياءً وأمواتًا. وهكذا من البشارات والعجائب التي يطول شرحها، وكل ذلك بحضرة الملائكة المقربين، والخلفاء الأربعة، والخضر - عليه السلام، وما كنت أترقب هذا الأمر لنفسي، ولا سألت الله إياه، بل كنت أسأله أن يجعلني مُعِينًا لمن يقوم به، فلما أراد الله، وحتم الأمر عليَّ من سيد الأكوان، قُمْتُ بأعباء هذه الدعوة، واعتصمت بالله، وتوكلتُ عليه، وأخبرتُ الحكمدارية بأني المهدي المنتظر، وقد كان بها محمد رءوف، وما تركت لأهلها في إيضاح هذا الأمر شيئًا.

وأنا في انتظار الأخبار، وتسليم الأمر لله الواحد القهَّار، فما كان منهم إلا أن ضربوا عما أخبرتهم به صَفْحًا، وطووا عن قبوله كَشْحًا، وبادروني بالمحاربة من غير روية ولا تثبت في هذا الأمر الديني، الذي جئتهم به من خير البرية، فأيدني الله عليهم كما وعدني، وهكذا صارت جيوشك تأتيني ثلة بعد ثلة، وأقدم لهم الإنذارات ولم تنفعهم، والله يؤيدني، وينصرني عليهم كما وعدني، ويقطع دابرهم، إلى أن قَلَّتْ حيلتك، وتلاشى أمرك، فَسَلَّمْتَ أمرَ أمةِ محمد ﷺ لأعداء الله الإنجليز، وأحللت لهم دماءَهم، وأموالهم، وأعراضهم، فجاء الإنجليز بكبرهم وخيلائهم، واعتمادهم على غير الله، فلما سول الشيطان لهم، واستولى على إدراك «غوردونهم» بالخرطوم، وأَيِسْتُ من هداية أهله، وعَلِمْتُ أن تَكْرَار الإنذارات لا ينفعهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وصاروا مثل من قال الله - تَعَالَى - في شأنهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، عجل الله بفتحه، وإهلاك من فيه، وأحرقت النار أجسادهم عيانًا؛ كالذين من قبلهم؛ إظهارًا للحقيقة، وتعجيلًا للعقوبة، وصدق عليهم قوله - تَعَالَى - : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

ثم أنذرت الإنجليز، فلووا رءوسهم، فوجهت إليهم طائفة من الأنصار، فَقَذَفَ الله في قلوبهم الرعب فولوا هاربين، بعد أن أهلك الله منهم من أهلكه، وشتت شملهم، وهذا كله غير خاف عليك، ولا زال حزب الله مقتفيًا أثر باقيهم، وعن قريب يُحِلُّ الله من الدمار ما يكون عبرة لمن اعتبر. هذا، وإن المؤمن المُصَدِّق بوعد الله لا يرى لجميع ما في الحياة الدنيا من الفانيات قيمة، ولا يأسف على ما فاته من ملكها الذي مآله إلى الزوال، وعظيم النكال، وإنما يكون مطمح نظره إلى ما عند الله من النوال، في دار الكرامة والإفضال؛ فإن الدنيا لو بقيت للأول، لم تنتقل للآخر، ومن هنا تعلم أن هذا الملك لم يصل إليك إلا بموتٍ أو عزلٍ من كان قبلك، وهو خارجٌ من يدِكَ بمثل ما صار إليك!

وحيث كان الأمر كذلك، فلا ينبغي لك - إن كنت ترجو من الله نعيم دار الأبد - أن تأسف على ما فاتك من الدنيا، ولو كان الدنيا بحذافيرها؛ فَدَقِّقِ النظر، واجمع عليك فكرك، وتدارك نفسك، وَاسْعَ فيما يُنَجِّيكَ عند ربك، إذا تمثلت بين يديه، وسألك عما جرى منك، وسَلِّمِ الأمْرَ إليه تَسْلَمْ.

وما كان يحسن منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله، وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد ﷺ.

ألم تسمع قول الله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله - تعالى -: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقوله - تعالى - : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠].

فإذا كنت ممن ينظر بعين بصيرته، ولا يُؤْثِرُ متاع الدنيا الخسيس على نعيم آخرته،

فاعتبر بذلك، وبادر إلى النجاة والسلامة المُعْتَبَرَةِ، وهي سلامة الإيمان، ونَزِّهْ نفسك من أن تكون في أسر أعداء الله دائمًا، ولا تُهْلِكْ من كان معك من أمةِ محمد ﷺ، واغْسِلْ ما جرى منك بدموع الندم، ولا تَكْتَرِثْ بجاه الدنيا الفاني، ولا بملكها الزائل؛ فإن لله دارًا خيرًا منها، وقد أَعَدَّهَا لعباده المتواضعين، وإياك والركونَ إلى علماء السوء الذين أسكرهم حُبُّ الجاه والمال، حتى اشتروا الحياةَ الدنيا بالآخرة، فَيُهْلِكُوكَ؛ كما أهلكوا مَنْ قبلك، ولا تَغْتَرَّ بقوة حصن بلدك، وكثرة أسلحتك وعُدَدِك الظاهرية، ومظاهرة دول أهل الكفر لك؛ فإنها لن تغني عنك من الله شيئًا، وكم أهلك قبلك من الملوكِ أهْلِ الحصونِ المنيعة، ومن هو أشد منك قوة، وأكثر جمعًا، لَمَّا بَغَوْا وعَتَوْا في الأرض مفسدين.

وليكن في علمك أن أمرنا هذا ديني مبنيٌّ على هدًى من الله، ونورٍ من رسول الله ﷺ، ومؤيد من عند الله بجنود ظاهرة، وباطنية، وما قصدنا منه إلا إحياء الدين، وإظهار آثار الأنبياء والمرسلين، ولا نريد مع ذلك ملكًا، ولا جاهًا، ولا مالًا، فإن نوَّر الله بصيرتك، وخالفت النفس الأمارة بالسوء، وقَبِلْتَ هدينا هذا، وأنبت إلى الله بنية خالصة، فعليك أمان الله، وأمان رسوله، وأماننا، وما بيننا وبينك إلا المحبة الخالصة لوجهه ـ تَعَالَى ـ، ونكون جميعًا يدًا واحدة على إقامة الدين، وإخراج أعداء الله من بلاد المسلمين، وقطع دابرهم، واستئصالهم إلى أن ينيبوا ويسلموا.

وقد حررت لك هذا الكتاب، وأنا بالخرطوم شفقةً عليك، وحرصًا على هدايتك، فأرجو الله أن يشرح صدرك لقبوله، ويدلك على صلاحك، ورشادك في الدارين، وهاأنا قادم إلى جهتك بجنود الله عن قريب ـ إن شاء الله ـ تَعَالَى ـ؛ فإن أمر السودان قد انتهى، فإن بادرتني بالتسليم لأمر المهدية، والإنابة إلى الله رب البرية، فقد حزت السعادة الأبدية، وأمنت على نفسك، ومالك، وعرضك، أنت وكافة من يجيب

دعوتنا معك، وإن أبيت بعد هذا إلا الإعراض عن طريق الفلاح والرشاد، فإنما عليك إثمك، وإثم من معك، ولا بد من وقوعك في قبضتنا، ولو كنت في بروج مشيدة، وهذا إنذار مني إليك، وفيه الكفاية لمن أدركته العناية، والسلام على من اتبع الهدى»(١).

أَصْدَاءُ الدَّعْوَةِ الْمَهْدِيَّةِ خَارِجَ السُّودَانِ

لا شَكَّ أن انتصاراتِ الثورةِ المهدية على الحكم التركي المصري، وما أفرزته من مقاومة القوى الاستعمارية، قد أحدث دويًّا عظيمًا في كثير من الأقطار الإسلامية، ولعل خير ما يعكس هذا الصدى ما جاء على لسان الخليفة «عبدالله» في رسالة «الحياتو بن سعيد» حفيد «عثمان بن فودي» في «نيجيريا» بتاريخ ١٤ صفر ١٣٠٣هـ، ١٢فبراير ١٨٨٦م: «وقد حضر بطرفنا بعد انتقال المهدي أمة من الناس من الجهات النائية: البعض من الهند .. وبخارى، ومكة المكرمة، ومن بني تميم، ومن الحبشة وتونس»، ويضيف في رسالة أخرى: «ومن إستنبول والجبرتة، وكلهم قد أخذوا البيعة عنا، واندرجوا في سلك الأصحاب، وصاروا من أنصار الدين، والبعض قد كملت تربيته، وتنور قلبه، وحررنا المكاتبات إليه، وإلى أهالي جهته؛ لدعوته إلى الله، ووجهنا إليهم رسلًا من طرفنا».

بدأ تطلع «المهدي» للخروج بالدعوة من إطارها المحلي إلى رحاب العالم بعد فتح الأبيض مباشرة؛ فقد جاء في منشور بتاريخ ١٠ ربيع الأول ١٣٠٠هـ - ١٩يناير١٨٨٣م، أن الرسول ﷺ: قد بشَّر «المهدي» بأنه سيصلي في مسجد «بربر»، ثم المسجد الحرام بمكة، وفي مساجد المدينة المنورة، ومصر، وبيت المقدس، وبغداد، والكوفة، وفي هذه البشرى حَثُّ المهدي على ضرورة نَشْرِ دعوته على نطاق عالمي.

من «الأبيض» بدأ المهدي بمحاولة استقطاب بعض الزعماء للانخراط في الدعوة؛

(١) «منشورات الإمام المهدي»، (٢٧٧/٢).

مثل سلطان ودَّاي، «ومحمد المهدي السنوسي»، «وحياتو بن سعيد»[١].

وواصل الخليفة «عبدالله» اهتمام «المهدي» بأواسط بلاد السودان، فخاطب سلاطين تلك المنطقة، وعين بعض من استجابوا عُمَّالًا له، كما استعمل الأنصار من أبناء البلاد الأخرى في نشر الدعوة، وقد وجدت الدعوة استجابة كبيرة في شمال نيجيريا.

ولم تقف اتصالات المهدي على أواسط بلاد السودان، وليبيا، بل شملت بلاد المغرب الأقصى، وجاءت المبادرة من بعض المغاربة القاطنين في مصر، ممن سمعوا بدعوة «المهدي»، وآمنوا بها، ثم أرسل المهدي إلى والي فارس، وخاطب أهل مراكش؛ للانخراط في دعوته، وحثهم على الجهاد في سبيل الله.

أما السنوسي، فلم يُقِرَّ لمحمد أحمد بالمهدية، بل تجاهل الرد عليه، وعدَّ ادِّعاءه المهدية تخريفًا[٢]، وأما «حياة بن سعيد» حفيد الشيخ «عثمان دنفديو»؛ فأجابه بالرسالة التالية:

«إلى سيدنا، وقدوتنا، ووسيلتنا إلى ربنا، خليفة رب العالمين، ونجل سيد الأولين والآخرين، ورحمة الله المهداة للمؤمنين، والحجة الواضحة على المنكرين، وسيفه المسلول على الكافرين، ناشر العدل بأقصى البلاد على رغم أنوف الظالمين، الذي ننتظره كانتظار «شوال»[٣] من الصائمين، سيدنا محمد المهدي المنتظر بن السيد عبدالله الحسني، وابن ساداتنا إلى سيد الوجود ﷺ وعليهم أبرك تحية، وأطيب سلام بغاية رضا، وأعلى إكرام.

وبعد: فقد وصلنا كتابك الكريم، وتلقيناه بأسرع ترحيب، وأيقن تسليم، وقد رَوِينا به بعد ظمإٍ، وحيينا به بعد موت، واهتدينا به بعد ضلالة، وقمنا على بصيرة قائلين

---

(١) انظر: «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص(٣٩٤ - ٣٩٥).

(٢) انظر: ص (٥١١)، وما بعدها.

(٣) لعله يعني عيد الفطر أول شوال.

بلسان الحال، والمقال: الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لِنَهتديَ لولا أن هدانا الله.

لقد جئت يا سيدي بالحق، وزهقت الباطل، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦].

وقد أتيتنا بما سيجعل الله به كلمةَ الذين كفروا السفلى، وكلمةُ الله هي العليا، فآمنا بك مخلصين، ومنقادين لك ظاهرًا وباطنًا، وبايعناك على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، معتقدين، بل موقنين، أنَّ يَدَكَ الكريمة نائبة عن يَدَيِ الحق التي فوق أيدينا - إن شاء الله - تَعَالَى -، وتركنا كل ما نحن فيه؛ توفيةً لما عاهدتنا، راغبين القرب منك في الدنيا والآخرة، ولو كنا ظالمين، وإن متنا على بيعتك، فلله الحمد والشكر على هذه النعمة التي لا نعمة فوقها، وقد رأينا الكرامات، وصدقنا، ووقفنا على الآيات، واعتبرنا، وأطعنا الأمر.

وها نحن يا سيدي مهاجرون إلى الله ورسوله، وإليك، وأرجو أن نكون أنصار الله ورسوله، وأنصارك - إلى أن يقول -: وما خرجت من بيتي وأهلي - يا سيدي، وخليفة ربي - إلا لكثرة ذنوبي، وسوء أخلاقي، راجيًا لرحمة ربي، قاصدًا بيته، وقبر نبيه، لعله برحمته الواسعة أن يغيثني بلقائك، وما أقمت في ذي البلاد إلا لانتظارك، وقد بايعتك أنا ووالدي، وجميع من تعلق بي قبل ظهورك الحَسَنِيِّ، وشأننا مع شأنك معلومٌ عندنا، سيما قد أوصانا جَدنا الشيخ عثمان بن فودي ﷺ بالهجرة إليك، ونصرتك، ومعيتك إذا ظهرت، ونحن معك قلبًا وقالَبًا في نصر دين الله، وسنة رسول الله - إن شاء الله -، إلا من سبق عليه القول والعياذ بالله»[1].

أقام المهدي في «أم درمان» يجمع الجموع، ويجند الجنود؛ لأجل التغلب على الديار المصرية، وأرسل مكاتيب من طرفه للخديوي، والسلطان عبدالحميد، وملكة إنكلترة يشعرهم بدولته، ومقر سلطنته، وضَرَبَ النقود[2].

(١) «منشورات المهدية»، ص(٣٣٤).

(٢) «الأعلام»، للزركلي، (٦/٢٠).

وأصدر بعض المنشورات يبين فيها كيفية أداء الوضوء، والصلاة، والمناجاة، وتناول فيها بعض القضايا الاجتماعية؛ كالمساواة بين الغني والفقير، فألزم أنصاره لبس الجبة المرقعة، ومنع النساء من لبس الحلي، وأمر البدو بحلق شعر الرأس، ودعا إلى تخفيض نفقات الزواج، وإبطال الغناء والرقص، ومنع البكاء وراء الميت، وأبطل السحر، وكتابة الأحجبة، وحَرَّم زيارة أضرحة الأولياء، وشرب الخمر، وتعاطي التبغ، ونهى عن خروج النساء إلا لحاجة، وحثهن على طاعة أزواجهن، وستر أنفسهن، وقضى بعقوبة من تقف حاسرة الرأس تعزيرًا.

وفي عهد الخليفة عبدالله طبق نظام قضاء المظالم، وعرف نظام الحسبة الذي يعتمد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحث الناس على أداء الشعائر، وشدَّد على صلاة الجماعة لبث روح الوحدة والإخاء بين أتباعه[1].

وأقام المهدي حكومة أحيا فيها أجهزة خلافة الراشدين؛ من بيتِ مالٍ، ودارٍ للقضاء، وقام بجمع الزكاة، وجبي العشور، وتوزيع الفيء، والغنيمة، على أساس شرعي، ثم إنه قَسَّمَ وحدات الجيش، أو راياته، على نمط إسلامي، وأصبح هو على رأس الدولة؛ باعتباره خليفة رسول الله ﷺ، يليه خلفاؤه الأربعة، وعماله، وأمراء الجيش، وغيرهم من العمال الذين رتبت وظائفهم على نهج إسلامي.

لم يُعَمَّرِ المهدي طويلًا بعد فتح الخرطوم، فقد دخل في خلوة، وداهمه المرض[2]، وقضى نحبه في «أم درمان» في التاسع من رمضان ١٣٠٢ هـ، الموافق ٢٢ يونيو ١٨٨٥م، وعمره إحدى وأربعون سنة، ودُفِنَ في المكان الذي قُبِضَ فيه[3]، وكان قد أوصى بالخلافة من بعده لعبدالله التعايشي.

---

(١) «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص(٣٩٣ - ٣٩٤)، بتصرف.
(٢) «السابق» ص(٣٦٥).
(٣) «الموسوعة الميسرة»، «١/٣١٥».

خِلَافَةُ التَّعَايشِيّ وَنِهَايَةُ الْحَرَكَةِ الْمَهْدِيَّةِ

قاد الحركة المهدية بعد مؤسسها عبدُالله التعايشي، وسار على نهجه، فكتب إلى الخليفة السلطان عبدالحميد وأهالي نجد والحجاز[١]، وإلى سلاطين غرب السودان، ونجح في بعض حروبه مع الحبشة، إلا أنه آثر أن يكرس جهده لمواجهة الخطر الوافد من الشمال[٢].

اعتزم التعايشي غزو مصر تحقيقًا لأحلام سلفه، وتوجهت حملة لغزو مصر، يقودها رجل من كبار قواده هو عبدالرحمن النجومي، وهو من الجعليين، وقد انتصر المصريون على النجومي في توشكى[٣].

كونت بريطانيا جيشًا إنكليزيًّا ـ مصريًّا بالاتفاق مع الخديو توفيق عام ١٨٩٦م، وضعته تحت قيادة الجنرال «كتشنر» البريطاني، وكان الجيش مسلحًا ببنادق سريعة الطلقات، ورصاصات متفجرة، وأحدث ما أنتجته المصانع الحربية البريطانية من مدفعية، وقام سلاح المهندسين الإنكليزي بإنشاء خطوط سكة حديد؛ ليربط جنوب مصر بشمال السودان، وتم إنزال سفن مدرعة في النيل، ومدفعية عائمة؛ لضرب الأهالي والبيوت في السودان[٤].

وفي ٨ أبريل ١٨٩٨م، وبين المتمة وأم درمان التقت قوات كتشنر مع قوات التعايشي يقودها محمد أحمد وعثمان دقنة، وحصدت المدافع الإنكليزية القوات

---

(١) وذلك في شوال ١٣٠٣هـ/يوليو ١٨٨٦م حيث كتب إلى عدد من قبائل الحجاز يحرضها على الجهاد، وسمي الخليفة عبدالله زعيم قبيلة الأحامدة عاملًا له على قبائل الحجاز، كما عين الأمير «عبدالله بن فيصل بن سعود» الذي أبدى حماسه للمهدية عاملًا على نجد، ولكن صمت المصادر عن تلك الاتصالات يوحي بالشك في مصداقيتها، أو أن نتائجها العملية لم تكن كبيرة. انظر: «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٩٥).

(٢) «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٩٦).

(٣) «أطلس تاريخ الإسلام»، ص (٣٣٨).

(٤) «العذاب الذي لاقاه المسلمون على أيدي الغرب»، ص (١٤٨).

السودانية في معركة «كرري» التي تعرف ـ أيضًا ـ بمعركة «أم درمان»[١]، وفيها قتل أحدعشر ألف سوداني، وجرح ستةعشر ألفًا[٢]، وفر التعايشي، ولكنه قتل في معركة «أم دبيبكرات» عام ١٣١٧هـ[٣].

● **ويذكر العميد كامل الشرقاوي أنه:**

في ٢ سبتمبر ١٨٩٨م اقترب جيش «كتشنر» من أم درمان عاصمة المهديين، وهناك وقعت مذابح فريدة من نوعها في تاريخ الحروب في ذلك الوقت، حيث فتحت القوات البريطانية الرشاشات بطريقة وحشية على جنود المهدي، فقتلت عشرين ألف جندي، وقفوا يصدون الرصاص بصدورهم بقصد منع تسليم وطنهم السودان إلى الإنكليز الذين استولوا على أم درمان[٤]. ونبش «كتشنر» قبر المهدي، وبعثر هيكله، وبعث بجمجمته إلى المتحف البريطاني[٥] انتقامًا لمقتل «جوردون»[٦].

وبذلك تم القضاء على الدولة المهدية، ودخل كتشنر وقواته الخرطوم، واستقر فيها حاكمًا، وبدأ عصر جديد في تاريخ السودان[٧].

(١) وفي معركة «أم درمان» هذه كان «ونستون تشرشل» مراسلًا حربيًّا مع الجيش البريطاني، انظر: «الأصول الفكرية»، ص (٩).

(٢) «أطلس تاريخ الإسلام»، ص (٣٣٧).

(٣) «التاريخ الإسلامي»، للأستاذ محمود شاكر، (٥١٤/٨).

(٤) «العذاب الذي لاقاه المسلمون على أيدي الغرب»، ص (١٤٩).

(٥) تمامًا كما فعل الفرنسيون مع سليمان الحلبي ـ رحمه الله ـ الذي قتل كليبر، ثم حوكم بمقتضى «العدالة» الفرنسية، وصدر الحكم بأن تحرق يده اليمنى، وهو حي، وهي متصلة بجسمه، وبعده يقيد ويوضع فوق الخازوق، ثم توضع يده اليمنى فوق فحم ملتهب؛ لتُشوى، وهو ينظر، ويبقى على الخازوق لحين تأكل رِمَّتَه الطيور، وقد تم تنفيذ هذا الحكم الوحشي الذي يليق «بالحضارة» الغربية المتوحشة فوق «تل العقارب» في ١٧ يونيو ١٨٠٠م، ثم احتفظ الفرنسيون بهيلكه العظمي، وأودعوه مُتْحَفَ حديقة الحيوانات والنباتات في باريس، كما حفظوا جمجمته في غرفة التشريح بمدرسة الطب بباريس. انظر: «ودخلت الخيل الأزهر»، ص (٣٤٩-٣٥٩)؛ و«الأعلام»، للزركلي، (١٣٣/٣).

(٦) «العذاب الذي لاقاه المسلمون على أيدي الغرب»، ص (١٤٨، ١٤٩)؛ وانظر: «الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني»، ص (٢٣٨)، «الموسوعة الميسرة» (٣١٥/١).

(٧) «أطلس تاريخ الإسلام»، ص (٣٣٧). ومن الجدير بالذكر أن المهدي السوداني كان له ولد يُدْعَى: =

مَوْقِفُ الحَرَكَةِ السَّنُوسِيَّةِ مِنَ المَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ

عاصر المهديُّ السوداني الزعيم الثاني للحركة السنوسية: محمدًا المهديَّ بن الإمام محمد بن عليٍّ السنوسي الكبير.

وُلد محمد المهدي في الجبل الأخضر في ليبيا، في ذي القَعدة ١٢٦٠هـ، ولما قدم المبشِّر بولادته على ابن السنوسي حكى لهم حكاية، قال: «كان رجل يخرز طبلًا، فمر به جماعة، وهو يخرز، قالوا له: ماذا تفعل؟ قال: إذا يبس تسمعون صوته». وقال: «أسميناه المهدي؛ ليحوز ـ إن شاء الله ـ أنواع الهداية، ونرجو الله أن يجعله مهديًّا»[(١)].

وعندما توفي الإمام ابن السَّنُوسي ـ رحمه الله ـ في صفر ١٢٧٦هـ، بويع ابنه محمد المهدي (ت ١٣٢٠هـ)، وهو ابن ست عشرة سنة، وفي عهده نمت الحركة السنوسية نموًّا مدهشًا، ودخلت عدة قبائل أفريقية في الإسلام، وتوطد سلطان الحركة في قلب الصحراء الكبرى، وارتجفت أوربة منها، وشلَّت حركة المنظمات التنصيرية[(٢)].

* * *

= عبدالرحمن بن محمد أحمد المهدي (١٨٨٥ ـ ١٩٥٦م)، ولد في أم درمان، وتلقى تعليمًا دينيًّا، وعندما شبَّ سعى لتنظيم المهدية بعد أن انفرط عِقدها، وصار في عام ١٩١٤م زعيمًا روحيًّا للأنصار، وفي عام ١٩١٩م بعثت به الحكومة؛ لتهنئة ملك بريطانيا بانتصار الحلفاء، حيث قام بتقديم سيف والده هدية للملك، الذي قَبِله ثم أعاده إلى عبدالرحمن طالبًا منه أن يحتفظ به لديه نيابة عن الملك، وليدافع به عن الإمبراطورية، وقد شكل هذا اعترافًا ضمنيًّا بالطائفة، واعترافًا بزعامته لها، وقد أنشأ عبدالرحمن أيام الاستعمار الإنكليزي على السودان «حزب الأمة»، وهو حزب المهدية السياسي، والذي يرأس الجناح الأقوى من أجنحته الثلاثة اليوم الصادق بن الصديق بن عبدالرحمن بن **محمد أحمد بن عبدالله المهدي** زعيم المهدية المعاصرة. انظر: «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة»، (١/٣١٦).

(١) «الحركة السنوسية في ليبيا»، للدكتور علي محمد الصلابي ـ حفظه الله ـ، (٢/١٥ ـ ١٦).

(٢) انظر: «السابق»، ص (٢٠ ـ ٤٤).

بَيْنَ المَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ وَالمَهْدِيِّ السَّنُوسِيِّ

سمع محمد أحمد بما حققته الحركة السنوسية من نجاح فائق، وانتصار عظيم، وتوسع كبير في الصحراء الكبرى، وفي القبائل الليبية، فرغب بضم هذه الحركة إليه، فأرسل محمد أحمد في عام ١٣٠٠هـ رسالة إلى محمد المهدي السنوسي هاك نصَّها:

«من عبد ربه الفقير إليه محمد المهدي بن السيد عبدالله إلى حبيبه في الله الخليفة محمد المهدي بن الولي السنوسي، كان الله في عونه، آمين. فيا أيها الحبيب القريب، الواقف على سنة النبي الأديب، المُرَقِّي العباد إلى مقام التقريب، لا يخفاكم تغير الزمن، وترك السنن، ولا يرضى بذلك ذوو الإيمان والفطن، بل يترك لذلك الأهل والوطن؛ لإقامة الدين والسنن، ولا يتوانى عن ذلك لكون غيرة المؤمن على الإسلام تجبره.

واعلم يا حبيبي: قد كنا ننتظرك، ومن معنا من الأعوان، ننتظرك؛ لإقامة الدين قبل حصول المهدية للعبد الذليل، وقد كاتبناك لما سمعنا باستقامتك ودعايتك إلى الله على السنة النبوية، وتأهبك لإحياء الدين بأن نصير إليك ونجتمع معك، ولم ترد لنا المكاتبة، وأظن ذلك من عدم وصولها إليكم، حتى إني ذاكرت جميع من اجتمعت معه من أهل الدين والشيوخ والأمراء، فأبوا ذلك؛ لهوان الدين عندهم، وتمكن حب الوطن والحياة من قلوبهم، وقلة توحيدهم، حتى بايعني الضعفاء على الفرار بالدين، وإقامته على ما يطلب رب العالمين، وقنعت نفوس من بايعناه من الحياة الدنيا؛ لما يرون للدين من الممات، ولا زال المساكين الذين لم يبالوا في الله بما فاتهم من المحبوب المشتهى يزدادون، وفيما عند الله يرغبون، حتى هجمت المهدية الكبرى من الله ورسوله على العبد الحقير ـ والله هو الفاعل المختار الذي هو على كل شيء قدير ـ فأخبرني سيد الوجود ﷺ بأني المهدي المنتظر، وخلفني ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالجلوس على كرسيه مرارًا بحضرة الخلفاء الأربعة، والأقطاب، والخضر ـ عليه السلام ـ، وقلدني سيفه ﷺ بحضرة الخلفاء، والأولياء، والأقطاب، والملائكة المقربين، والخضر ـ عليه السلام ـ وأُعلِمت أنه لا يُنْصَرُ عَلَيَّ

أحدٌ بعد إتياني سيف النصر من حضرته ﷺ

ثم أخبرني ﷺ: أن اللَّه جعل لك على المهدية علامة، وهي الخال على خدك الأيمن، وجعل لي علامة أخرى: تخرج راية من نور تكون معي ساعة الحرب يحملها عزرائيل ـ عليه السلام ـ فيثبت اللَّه بها قلوب أصحابي، وينزل الرعب في قلوب أعدائي، فلا يلقاني أحد بعداوة إلا خذله اللَّه ـ تعالى ـ ثم قال ﷺ: إنك مخلوق من نور عنان قلبي، فمن له السعادة صدق بأني المهدي المنتظر، ولكن اللَّه جعل في قلوب الذين يحبون الجاه، والمال النفاق، فلا يصدقون ولا ينقادون للحق؛ حرصًا على جاههم، قال ﷺ: «الْجَاهُ وَالْمَالُ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ، كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ».

ولما حصل لي يا حبيبي، من اللَّه ورسوله أمر الخلافة الكبرى أمرني سيد الوجود ﷺ بالهجرة إلى جبل بالغرب يقال له: «قدير»، وأمرني أن أكاتب بها جميع المكلفين أمرًا عامًّا، فكاتبت الأمراء والمشايخ فأنكر الأشقياء، وصدق الصديقون الذين لم يبالوا بما لقوه من المكروه، وما فاتهم من المحبوب المشتهى، بل ناظرون إلى وعده ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]، مع أن أولئك المنكرين يزعمون أنهم يعلمون أن الأمر للَّه.

وقد أراد اللَّه المهدية المنتظرة، واختارها لعبده الحقير الذليل محمد المهدي بن عبداللَّه، ولازال التأييد يزداد من اللَّه ورسوله، وأنت منا على بال حتى جاءتنا الأخبار فيك من النبي ﷺ أنك من الوزراء لي، ثم لازلنا ننتظرك حتى أعلمنا الخضر ـ عليه السلام ـ بأحوالكم، وما أنتم عليه، ثم حصلت حضرة عظيمة عيَّن النبي ﷺ فيها خلفاء أصحابه من أصحابي، فأجلس أحد أصحابي على كرسي أبي بكر الصديق، وأحدهم على كرسي عمر، وأوقف كرسي عثمان، فقال: هذا الكرسي لابن السنوسي، وأجلس أحد أصحابي على كرسي «علي» ـ رضوان اللَّه عليهم أجمعين ـ

وما زالت روحانياتك تحضر معنا في بعض الحضرات مع أصحابي».

«... وأخبرني سيد الوجود ﷺ، بأن من شك في مهديتي فقد كفر بالله ورسوله، كررها ﷺ ثلاث مرات، وحرضني ﷺ على قتال الترك المخالفين المنكرين مهديتي، ومن اتبعهم على مخالفتي وجهادهم، وسماهم كفارًا، بل هم أشد كفرًا؛ لأنهم ساعون في إطفاء نور الله، وأخبرني ﷺ مبشرًا بأن أصحابي كأصحابه، وأن عوامهم لهم رتبة كرتبة الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وهذا الفضل بشرط الاتباع ظاهرًا وباطنًا، والله ذو الفضل العظيم.

هذا وإن جميع ما أخبرتك به من خلافتي بالمهدية وخلافه، فقد أخبرني به سيد الوجود ﷺ يقظة في حال الصحة، لا بنوم، ولا بجذب، ولا سكر، ولا جنون، بل متصف بصفات العقل، أقفو أثر رسول الله ﷺ بالأمر به، والنهي فيما نهى عنه، وليكن معلومك أني من نسل رسول الله ﷺ، فأبي حَسَنِيٌّ من جهة أبيه، وأمه كذلك من جهة أمها، وأبوها عباسي، والعلم لله؛ إن لي نسبة إلى الحسين رضي الله عنه.

وأخبرك أن الله فتح على يدنا كثيرًا من البلاد، وانقاد لنا كثير من العباد، ممن كانوا تحت حكومة الترك، فإذا بلغك جوابي هذا، إما أن تجاهد في جهاتك إلى مصر ونواحيها إن لم يسلموا، وإما أن تهاجر إلينا، ولكن الهجرة أحب إلينا، كما علمت فضل الهجرة من زيادة الثواب والمقابلة إن تيسرت، وعلى كل حال ترد إلينا منك الإفادة بما يصير إليه عزمك من جهاد أو هجرة، ومثلك تكفيه الإشارة، والسلام»[١].

رد السنوسي على محمد أحمد

«... إنني لم أبلغ منزلة الغبار الذي ثار في أنف فرس عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في إحدى غزواته مع رسول الله ﷺ ولا جواب عندي على هذا الكتاب»، ثم أمر الرسول

(١) «منشورات المهدية»، ص (٧٠ - ٧٥) باختصار؛ وتاريخ الرسالة ٥ رجب ١٣٠٠هـ، ١٣ مايو ١٨٨٣م.

بالعودة من حيث جاء، وأوصى ملك واداي بأن لا يحرك ساكنًا مع المتمهدي، بل إذا جاءه محاربًا يحاربه[١].

ولم يؤمن المهدي السنوسي، ولا علماء الحركة السنوسية بمهدية محمد أحمد السوداني، وقاوم أتباع الحركة السنوسية في السودان الغربي نفوذ ثورة محمد أحمد السوداني، ويذكر محمد الطيب الأشهب أن سلطان برقو أرسل للمهدي السنوسي يستوضحه: ماذا يكون موقفه من التعايشي الذي طلب مؤازرته، فكان رد المهدي:

«إنه إنما يعني بالدعوة إلى إصلاح الدين سلمًا ولا حربًا، بينما تنفر الملة التي يراد إحياؤها نفورًا عظيمًا، بل وتشتد ثورتها ضد الدماء التي يهدرها، والجرائم التي يرتكبها في السودان»[٢].

وقد قامت الممالك في السودان الغربي «تشاد» بمحاربة التعايشي خليفة محمد أحمد السوداني، وحدَّت من انتشار حركته[٣].

التَّعْلِيقُ عَلَى مَوْقِفِ السَّنُوسِيَّةِ مِنْ مُحَمَّد أَحْمَد

إن رفض علماء الحركة السنوسية ـ وعلى رأسهم المهدي السنوسي نفسه ـ لفكرة مهدية محمد أحمد السوداني، واعتبارهم إياها نوعًا من التخريف هو موقف ليس بغريب عليهم، بل متوقع منهم، كيف لا، وهم المتضلعون من العلم الشرعي الشريف، المستوعبون لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ بفهم السلف الصالح أهل السنة والجماعة[٤]، الحكماء في دعوتهم، البريئون من شطحات صوفية[٥] المتمهدي السوداني التي لا

(١) «الحركة السنوسية في ليبيا»، (٢/٤٧).

(٢) «المهدي السنوسي»، لمحمد الطيب الأشهب، ص (٥٨)، نقلًا عن «الحركة السنوسية»، (٢/٤٨).

(٣) «الحركة السنوسية»، (٢/٤٨).

(٤) انظر: بيان تمسك السنوسية بالعقيدة السلفية في: «الحركة السنوسية في ليبيا»، (١/ ١٠٦ ـ ١١٥).

(٥) انظر بيان نقد السنوسية لأخطاء الصوفية، ومخالفته للصوفية المنحرفة في «السابق»، (١/١٤٧ ـ ١٧٤).

يقرها الشرع الشريف، بل ينكرها أشد الإنكار ويحكم بكذبها، وهذا هو الفرق بين من يدعو إلى الله «على بصيرة»، وبين من يغرق حتى أذنيه في خرافات الصوفية وخيالاتهم الفاسدة.

إن المهدي السوداني حين حاول في أول اتصال بينه وبين الحركة السنوسية أن يفرض عليها السيطرة والتبعية كان قد طرق الباب خطأً، ولو كان مدخله قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ الآية، فربما اختلف الموقف، ولكنه لم يدرك أنه يتحدث ـ هذه المرة ـ مع علماء راسخين، وأئمة راشدين، لا ينطلي عليهم هُلاسُ الصوفية وهَذَيانُهم، فرأوا أن يضربوا عنها صفحًا، ولما تكررت المراسلة تلقى المهدي السوداني ذلك الرد الموجع.

دَفْعُ شُبْهَةٍ

قد يعزو قائل نفور المهدي السنوسي من السوداني إلى أنه رآه «منافسًا» له في دعوى المهدية، خاصة وأنه نُسِب إلى أتباعه أنهم كانوا يعتقدون فيه أنه المهدي المنتظر.

والجواب: أن هذه فرية بلا مرية:

- فإطلاق وصف «المهدي» على محمد السنوسي، إنما هو من الإطلاق العام، وليس الاصطلاحي كما قدمنا[1]، وقد أوضح ذلك بجلاء والده الإمام محمد بن علي السنوسي ـ رحمه الله ـ تعالى ـ كما تقدم.
- بل إن المهدي السنوسي نفسه كان ينكر ذلك، وينفي هذا القول بشدة، يقول الدكتور محمد الصَّلَّابي ـ حفظه الله ـ تعالى ـ:

«إن التهمة الموجهة للحركة السنوسية بأن أتباعها يعتقدون في الإمام محمد المهدي السَّنُوسي أنه هو المهدي المنتظر تهمة باطلة، رفضها الإمام محمد المهدي، وعارضها،

(١) راجع الصفحات(٢٧، ٢٨، ١٥١، ٣٧٠، ٣٧١).

وأبى الموافقة على القول بها، ولما سئل الملك محمد إدريس[1] بن محمد المهدي السنوسي (ت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) - رحمهما اللَّه - عن رأي أبيه في قول بعض أتباع الطريقة بمهدويته أجاب: «كان كلما سمع هذا القول نفاه بشدة، وأبدًا لم يعتقد به»[2].

وفي هذا أبلغ رد على ما حكاه السيد محمد رشيد رضا - رحمه اللَّه تعالى - حين كتب: «ويقال: إن السَّنُوسية يعتقدون أن شيخهم المهدي السَّنُوسي هو الإمام المنتظر، ومنهم من يقول: إنه اختفى، وقد بلغنا أنهم كانوا إذا سئلوا عن موته يقولون: «الحي يموت»، ولا يقولون: إنه قد مات»[3].

فلو صح أن عوامَّ من السنوسيين غَلَوْا - بجهلهم - في إمامهم، فكان ماذا؟! وأيهما يقدم: «تصريح» صاحب الشأن بنفي هذه التهمة، أم «تعريض» أتباع مجهولين مغمورين إن صح عنهم هذا «البلاغ»؟!

* * *

(١) جاء في ترجمته - رحمه الله - في «تتمة الأعلام للزركلي» (٣٢٢/٢): «وكان يرفض أي قانون وضعي أو دولي يخالف الشريعة». اهـ. ولا غرو، فهذا الشبل من ذاك الأسد!

(٢) «الحركة السنوسية في ليبيا»، (٥٦/٢).

(٣) «تفسير المنار»، (٥٠١/٩).

مَنْ أَصْدَاءِ حَرَكَةِ المَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ

• حَرَكَةُ المَهْدِيِّ الصُّومَالِيِّ «المُلَّا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ حَسَن»(١)

كان لحركة المهدي السوداني صدى عميق في العالم الإسلامي؛ فقد أحدثت في القلوب هزة عنيفة، وكشفت القناع عن بريطانيا؛ فلم تعد في نظر المسلمين قوة مخيفة، بل ظهر للعالم أنها دخان من غير نار، فهب المسلمون في كل مكان ينادون بالجهاد والثورة ضد الاستعمار، حدث هذا في «بخارى»، و«أفغانستان»، و«الهند»(٢)، وأواسط آسيا، والصين، وجزائر الهند الشرقية، وأفريقيا الشمالية، وفي الصومال، حيث كانت مقسمة بين بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، والحبشة، وحيث كان التناحر والتنافر بين شيوخ قبائلها، اندلعت ثورة قادها المجاهد الفذ «المهدي الصومالي» محمد بن عبدالله حسن الذي زلزل الأرض من تحت أقدام الاستعمار لمدة ربع قرن من الزمان، في ظروف دولية صعبة، وأحوال داخلية ممزقة، وبأسلحة قديمة وقليلة.

حفظ محمد بن عبدالله القرآن الكريم في سن مبكرة، وتتلمذ على شيوخ الدين والعلم، ولما بلغ سنه خمسًا وعشرين سنة، رحل إلى مكة المكرمة؛ ليستكمل تلقي العلم على أيدي علماء الحرمين الشريفين، وحين عاد إلى الصومال التقى بشيخه محمد صالح السوداني الذي حدثه عن مهدي السودان وجهاده، وكذا أخبار الثورة العرابية، فتأجج في قلبه جذوة الجهاد وكراهية الظلم والقهر.

كان بليغًا مؤثرًا قوي الشخصية، كبير الهمة، استطاع أن يوحد أكثر القبائل الصومالية، ويجمعهم على الجهاد بالرماح، والسيوف، والبنادق القليلة.

---

(١) هذا الفصل مختصر بتصرف من «الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني»، ص (٢٥٨ - ٢٦٥).

(٢) ولقد نشر في «العروة الوثقى»، ص (٢٠٨ - ٢٠٩): «لقد أخذ الاعتقاد بـ «محمد أحمد» سبيلًا في قلوب الهنديين، حتى كتب إلينا أحد أصدقائنا في «لاهور» أن محمد أحمد لو كان دجالًا لأوجبت علينا الضرورة أن نعتقده مهديًّا، وألا نفرط في شيء مما يؤيده». «الأصول الفكرية» ص(٢٦٧).

وحانت له الفرصة حين أرسلت بريطانيا أربع حملات عسكرية مجهزة، فقضى عليها المهدي الصومالي واحدةً إثر واحدة، ثم توحدت ضده بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والحبشة، فحارب في هذه الجبهات جميعًا، غير عابئ بالتضحيات التي يتعرض لها؛ إنه منطق الإيمان، ومنطق الإيمان لا يضع في حسبانه قيمة للخسران والربح؛ ذلك شأن التجار والسماسرة من أدعياء الحرية والفكر، إنها إحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر.

وكما فعل غوردون مع المهدي السوداني حين كتب إليه قائلًا: «إني قادم إليك بجنود أقطع بهم أنفاسك»؛ فقد أرسل الجنرال «كوفل» القائد العام للقوات البريطانية هذه الرسالة إلى «الملا»: «سننسفك نسفًا إذا لم ترجع عن غيك، وإذا لم تخمد ثورتك الجنونية، واعلم أن حكومة صاحبة الجلالة عظيمة جدًّا، ولا يستطيع مجنون مثلك أن ينال منها شيئًا، فارجع عما أنت فيه، وعد إلى صوابك قبل أن تقع المصيبة عليك، وتندم على أعمالك السيئة».

وقد رد عليه المهدي الصومالي قائلًا: «من السيد محمد بن عبدالله حسن قائد القوات الإسلامية الصومالية إلى الجنرال كوفل قائد الشيطان:

قد اطلعت على رسالتك، وفهمت منها جميع أغراضك الدنيئة، وأغراض حكومتك الوضيعة، واعلم أن قواتكم التي تفاخرون بها لا تساوي لدي شيئًا، وأعلمك - أيضًا - أنكم إذا كنتم تحاربونني بقواتكم الهائلة الكثيرة العدد، فإني أقاتلكم بنيتي الصالحة، وبإيماني القوي، وبعزيمتي التي لا تعرف الملل، ومهما تكن الظروف لن أستسلم لك، وأكون للشرك عبدًا»[1].

لقد طار صواب الاستعمار البريطاني بعد هذا الرد الحاسم، وبدأ الجنرال «كوفل» يجمع قواته؛ لخوض معركة فاصلة مع هذا الأبي الثائر.

إن مأساة غوردون تتكرر هذه المرة مع الجنرال كوفل، والغرور الذي أدى إلى

(١) «مهدي الصومال»، للدكتور/ محمد المعتصم سيد، ص (٤٦)، نقلًا عن «الأصول الفكرية»، ص (٤٦).

مصرعه في الخرطوم يقود خَلَفَه على أرض الصومال إلى المصير نفسه.

لقد بدأت المعركة، وسقط الجنرال المغرور تحت سنابك خيول المجاهدين وأقدامهم.

وكان وقع هذه الهزيمة كوقع سابقتها في الخرطوم أليمًا ومريرًا ومفزعًا، ومن ثم حاولت بريطانيا إغراءه بأن تعترف به ملكًا متوجًا على الصومال كله مقابل وقف القتال وإلقاء السلاح.

وأعاد التاريخ نفسه، فقد أمر رجاله برد الهدايا التي بعث بها إليه نائب الملكة في الهند، ثم خاطب رئيس الوفد: «إنني لم أفكر في يوم من الأيام أن أكون ملكًا، ولم يكن ذلك هدفي لا في الحاضر، ولا في المستقبل، لكن هدفي الوحيد هو أن أطرد الاستعمار من بلادي، وأعيد إليها حقوقها المغتصبة، وأطهرها من النفاق والشرك، ولست أبالي بعد ذلك أن أحيا أو أموت»[1].

لقد كان في جهاده بطلًا، وكان تاريخ حياته بالبطولة حافلًا إلى أن قتل في إحدى المعارك شهيدًا ـ إن شاء الله ـ.

* * *

(١) «السابق»، ص (٥٠).

تَقْوِيمٌ عَامٌّ لِحَرَكَةِ المَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ

من خلال السرد السابق لأحداث الحركة المهدية نستطيع أن نُخضع مقولات المهدي السوداني وممارساته «لفحص» شرعي كامل، فنستخلص العبر والدروس، ونزيد رصيدنا من «فقه التاريخ»؛ كي نستفيد منه في المستقبل، فلا نلدغ من جحر واحدٍ مرتين:

اقْـرَءُوا الـتَّـارِيـخَ إِذْ فِيهِ الْـعِـبَـرْ   ضَـلَّ قَـوْمٌ لَـيْـسَ يَـدْرُونَ الْخَبَـرْ

وفي هذا الفصل نحاول استنباط خصائص دعوة المهدي السوداني، ونتعرف على إيجابياتها وسلبياتها، ولكننا نقرر ـ بادئ ذي بدء ـ أننا لا نستطيع أن نصوغ موقفنا من هذه الحركة بناءً على التسليم بدعاوى المهدي وتهويشاته؛ ليس لأن الواقع كشف كذبها، بل لأن الأصول الشرعية تثبت ـ منذ البداية ـ فساد منهجه الذي قفز فوق الضوابط العلمية، وعبث بالثوابت المصونة، وزاحم المرجعية الشرعية بمصادره المفتراة، كما بينا من قبل، وكل من يحترم هذه المرجعية كان يستطيع الجزم بفساد دعاواه الكاذبة، حتى قبل أن يكذبها الواقع، وهذا هو الفرق بين النظرة الموضوعية الملتزمة بصيانة مصادر التلقي من العبث، وبين النظرة العاطفية التي تستفزها بُدآت الأمور، وتبهرها بعض الإنجازات الإيجابية إلى الحد الذي يُحلُّ لأصحابها أن يغضوا الطرف عن عدوان المبتدع على أصول الشرعية المعصومة، ويتجاوزوا عن تجاوزه حدود الله ـ تعالى[١].

وما أصدق ما قال بعض السلف: «إن الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل!»، فالعقل فوق العاطفة، و:

الـرأي قـبـل شـجـاعـة الـشـجـعـانِ   هـو أول وهـي المحـل الـثـانـي

---

(١) انظر: «الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام» للمؤلف، ص (٣٨٦ ـ ٣٨٩).

الحركة المهدية حلقة من حلقات الصراع بين الإسلام والصليبية

إن التفسير الصحيح الوحيد للتاريخ أنه صراع بين الإيمان والكفر، منذ طرأ الشرك على البشرية؛ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾، ولقد مثلت حركة المهدي السوداني حلقة من حلقات هذا الصراع بغض النظر عن المؤاخذات على هذه الحركة، يقول الدكتور عبدالودود شلبي ـ حفظه الله:

«وسواء أكان «محمد أحمد» هو «المهدي» أم لم يكن فلن يغض ذلك من قيمة الرجل الذي فجر في السودان أكبر ثورة إسلامية في القرن الثالث عشر الهجري ـ التاسع عشر الميلادي.

لقد بدأ ثورته ببضعة رجال مسلحين بالحراب والعصي، ولكن مقدرته الفائقة في إلهاب الجماهير، وإشعال نيران الجهاد والحماس، مكنته من هزيمة الحكومة في كل معركة خاضتها ضده، واستطاع وهو الصوفي البسيط .. أن يقهر خمسة جنرالات من أقوى دولة أوربية، كان من بينهم أشهر القادة البريطانيين، لقد استخدم المهدي الدينَ استخدامًا مثاليًّا، ومزج بينه وبين الحياة مزجًا رائعًا، فالإسلام هو الذي قاوم، والإسلام هو الذي جاهد، والإسلام هو الذي انتصر في النهاية على التعصب والصليبية.

ومنذ وطئ الاستعمار أرض الإسلام، كان من أهم أهدافه سحق هذه العقيدة، أو عزلها عن الحياة والحركة، أو تشويهها على أيدي المبشرين والمرتزقة؛ لأنه يعلم يقينًا أن الإسلام إباء، يرفض الذل، وقوة تحتقر الضعف، وثورة على كل مظاهر الاستعمار والاستبداد والظلم»[1].

«إن الإسلام هو الذي حمى الوطن الإسلامي في الشرق من هجمات التتار، ومن

(١) «الأصول الفكرية»، ص (٢٤٦ ـ ٢٤٧).

هجمات الصليبيين على السواء، ولو انتصر الصليبيون في الشرق كما انتصروا قديمًا في الأندلس، أو كما انتصر اليهود حديثًا في فلسطين، ما بقيت قومية عربية، ولا جنس عربي، ولا وطن عربي، والأندلس قديمًا، وفلسطين حديثًا كلاهما شاهد على أنه حين يطرد الإسلام من أرض، فإنه لا تبقى فيها لغة ولا قومية بعد اقتلاع الجذر الأصيل.

والإسلام هو الذي كافح في الجزائر مئة وثلاثين سنة، وهو الذي استبقى أرومة العروبة، حتى بعد أن تحطمت مقوماتها الممثلة في اللغة والثقافة، هنالك قام الإسلام ـ وحده ـ في الضمير يكافح الغزاة، ويستعلي عليهم، ولا يحني رأسه لهم، وبهذا ـ وحده ـ بقيت روح المقاومة في الجزائر حتى أذكتها من جديد الحركة الإسلامية بقيادة عبدالحميد بن باديس، فأضاءت شعلتها من جديد، وهذه الحقيقة يعرفها جيدًا الفرنسيون والصليبيون.

والإسلام هو الذي كافح في برقة، وطرابلس ضد الغزو الإيطالي، وفي أربطة السنوسية وزواياها، نمت بذور المقاومة، ومنها انبثق جهاد عمر المختار الباسل النبيل».

والإسلام هو الذي هب في مراكش، حين أرادت فرنسا سن قانون يعود بقبائل البربر إلى عقائدهم التي كانوا عليها قبل الإسلام، وفصلهم عن إخوانهم المسلمين في الشمال، وكانت هذه المحاولة هي الشرارة التي أشعلت في الفرنسيين النار.

والإسلام هو الذي كافح في الهند ـ قبل التقسيم ـ وكان المسلمون دون غيرهم هم أبطال الجهاد ضد الاستعمار والبريطانيين.

لقد كافح الإسلام لأن عنصر القوة كامن في طبيعته، كامن في بساطته ووضوحه، وشموله، كامن في الاستعلاء عن العبودية للعباد بالعبودية للَّه رب العباد، وفي رفض التلقي إلا منه، ورفض الخضوع إلا له.

ومن أجل هذه الخصائص في الإسلام يحاربه أعداؤه هذه الحرب المنكرة؛ لأنه يقف لهم في الطريق، يعوقهم عن أهدافهم الاستعمارية الاستغلالية؛ كما يعوقهم عن

الطغيان، والتأله في الأرض.

ومن أجل هذه الخصائص يطلقون عليه حملات القمع والإبادة، ويتربصون به الدوائر في كل ناحية، ويفزعهم ويرعبهم قيام أية حركة تحمل لواءه، أو ترفع شعاره، أو تنادي بالعودة إلى شرائعه وأحكامه»[(١)].

ولقد كانت حركة مهدي السودان ـ برغم ما يشوبها من تصورات خاصة ـ حركة أرعبت دول الاستعمار، وحركت فيهم كوامن الفزع والخوف، وأرقت ليالي مطامعهم السود، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى النار والسيف.

● **يقول الدكتور/ عثمان سيد أحمد إسماعيل:**

«ما الحصاد الحقيقي لهذه الحركة التي ما كانت إلا كلمح البصر في عداد التاريخ؟ إن المهدي ولد عام ١٢٦٠، وبدأ دعوته عام ١٢٩٨، وتوفي عام ١٣٠٢هـ. عمره كله حوالي ٤٢ عامًا، وعمر دعوته التي حقق فيها كل تلك الانتصارات، والتي لم تكن تعني أي شيء أقل من هزيمة الإمبراطورية البريطانية ولو إلى حين، لم يزد عن خمس سنوات، وكانت تمثل انتصارًا للمقاومة الفكرية والدينية والعسكرية على الهجمة الصليبية الاستعمارية على بلاد الإسلام، وبلاد العالم الثالث كلها، وكان لأحداثها صداها في تاريخ مقاومة الاستعمار والصليبية على نطاق العالم الإسلامي كله على وجه الخصوص، وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى الصلة بين المهدية وبين حركة «دان فودي» بغرب إفريقيا فإن آثار حركة المهدية شملت نيجريا وتشاد وبرنو وبلاد حوض النيل ومصر والصومال والحبشة وحتى إندونيسيا»[(٢)].

* * *

(١) «المستقبل لهذا الدين»، ص (١٣١ ـ ١٣٥) بتصرف.

(٢) «حركتا الشيخ عثمان بن محمد بن فودي والشيخ محمد أحمد بن عبدالله المهدي وآثارهما» ضمن «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٦٥).

آثار الحركة المهدية على السودان

● **يقول الدكتور عثمان سيد أحمد إسماعيل:**

بالنسبة للسودان كانت المهدية بلا شك الحركة التي وحدت بلاد السودان توحيدًا إيجابيًّا ـ بعد أن مدت التركية المصرية سلطانها عليها ـ اعتمادًا على ما كان قد بدأ من الداخل سياسيًّا وجغرافيًّا. والمهدية هي التي نجحت في أن تبني على بقايا الممالك والسلطنات والمجموعات القبلية المسلمة وغيرها ـ في سنار، وفي الغرب والشرق وفي جنوب السودان ـ كيانًا سياسيًّا تحت راية المهدي، كيانًا وقف مدافعًا عن عقيدته وأرضه ضد أعتى الإمبراطوريات في القرن التاسع عشر والقرن العشرين. هذا من زاوية المقاومة ضد الصليبية والاستعمار. كما أن حركة المهدية من هذه الزاوية كانت الذكرى الملهمة الحية في ضمير الشعب المسلم وغير المسلم في بلاد سودان وادي النيل، التي جعلته يقاوم الاستعمار بالدم والكلمة والشعار إلى أن أزاله اللَّه.

أما من زاوية الإسلام فإن حركة المهدي كانت حركة توحيد وتجديد في جوهرها ومرماها، والمهدية هي التي نشرت لواء الشريعة على أرض سودان وادي النيل، من شماله وحتى جنوبه، وإن ما تم في السودان الآن من تطبيق للشريعة إنما هو سير على درب بدأه «محمد أحمد بن عبداللَّه المهدي». ولقد كانت حركته في سيرتها وسيرها سريعة موفقة في تحريك قبائل السودان المختلفة للانصهار والتمازج والاختلاط تحت راية الإسلام، وفي روح الجهاد.

ولقد خلَّف المهدي ـ عليه رضوان اللَّه ـ من المنشورات والرسائل والأدعية الدينية وحسن السيرة وعطر الذكرى ما يؤكد عمق علمه وصدق توجهه وصفاء نفسه وحدة عقله. وإن آثار تعاليمه التي لا تزال تنتشر بين أنصاره وغيرهم من المسلمين بالسودان تميزهم بالكثير الخَيِّر بين المسلمين. كما أن المهدية كفكر وواقع كانت السبب المباشر في إذكاء روح التأليف شعرًا ونثرًا ورجزًا ورسائل وكتبًا. وإن مجموعة منشورات

المهدي وراتبه تشكل مع كل هذا ثروة ضخمة لا تزال تنتظر الدراسة العميقة الواعية الهادفة. وإن عمل المهدية في تاريخ بلاد سودان وادي النيل، بل في تاريخ وادي النيل كله، وبلاد حوض النيل كلها أكبر من أن تحصره مقالة عابرة، أو بحث متعجل مثل هذا)[١]اهـ.

● **ويقول الدكتور يوسف فضل حسن:**

«ولقد أدى انتصار الثورة المهدية على العهد التركي المصري إلى تحول كبير في المجتمع السوداني، فبينما اهتم العهد الأول - وهو نظام مدني - باستغلال موارد البلاد دون التفات كبير لمصلحة الفرد، ركز الإمام المهدي على تربية الفرد على نمط إسلامي بحسبانه العنصر الأساسي في بناء المجتمع المسلم وإقامة الدولة السلفية»[٢]اهـ.

مقومات نجاح حركة المهدي السوداني «كثورة»

أولًا: شخصية الداعية

فقد توفرت صفات الزعامة للمهدي، إلى جانب نسبه الشريف، وورعه، وزهده، واستعلائه على متاع الدنيا وزخرفها، وثباته على خشن العيش في مطعمه وملبسه حتى بعد أن كثرت لديه الأموال والغنائم، وكان يتحرج من أن يمد يده إلى مال فيه شبهة[٣]، وكان يثور على كل منكر رآه مهما كانت منزلة صاحبه، فقد أنكر ما رآه في بيت شيخ له حين شاهد الرقص والغناء والإسراف في إنفاق المال في حفل ختان ولده، وفارق شيخه.

وكان وديع النفس، كريم الخلال، مخلصًا في دعوته، قوي الإيمان بالله، لا يبالي

---

(١) «السابق»، ص (٣٦٥ - ٣٦٦)، وانظر التحفظات على حركة المهدي ص (٥٤٠)، وما بعدها.

(٢) «الحركة المهدية السنوسية» ضمن «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٩٤). وفي وصف دولة المهدي بالسلفية تجاوز، إلا أن توصف بأنها كان فيها ملامح سلفية كما يأتي - إن شاء الله -.

(٣) راجع ص(٤٥٤).

الموت في سبيل عقيدته، وبهذا الإيمان تمكن ـ على قلة أتباعه ـ أن يهزم الجنود المدربين والمجهزين بالأعتدة الحربية في كثير من المعارك.

وكان يهتم بتزكية نفسه عن طريق الخلوة، والأخذ بحظ من العزلة عن الخلق، ومجاهدة النفس، ومع ذلك كان يخالط الناس ويعلمهم ويربيهم، مما ساهم في إيجاد قاعدة شعبية عريضة مهيأة لقبول دعوته ومناصرتها.

أما في ساحة الحرب فقد برزت شخصيته القيادية المتميزة، التي امتزجت فيها سمات القيادة الروحية والقيادة الحربية، يقول الدكتور عبدالودود شلبي ـ حفظه الله ـ في هذا الصدد:

«إن المهدي لم يكن ـ فقط ـ صوفيًّا وفقيهًا، كان فوق ذلك كله قائدًا حربيًّا قديرًا، وقد عرف كيف يمزج بين هذه المواهب جميعًا ـ في ساحة الحرب ـ، ويستخلص منها المثل الذي يجعل الليل ضياءً ونورًا، ويملأ قلوب أنصاره ثقة وأملًا «فقد ذهب إليه جماعة، وقالوا له: يا سيدي، يقول الناس إن الترك قصدوا مدينة الأبيض ليستأصلوا من فيها، ويحوزوا النساء والذرية، حتى شاع الخبر في الناس، وأُرجِفوا بسبب ذلك، فالتفت المهدي، وقال: أيها الناس، أنصتوا، ثم بصق في كفه اليسرى وقال: أي شيء هذا؟ قالوا: بصاق يا سيدي، ثم طرحه على الأرض فشربته في الحال، ثم قال للناس: هل ترون لهذا البصاق أثرًا؟ فقالوا له: لا، فقال: نحن كالأرض والترك كالبصاق! ثم قال: إذا طار طائر فأين ينزل؟ فقالوا له: على الأرض، فقال لهم: إن الترك كالطائر ونحن كالأرض! أيها الناس اثبتوا واطمئنوا، وأنزلوا رواحلكم، واستريحوا، فإن الترك لا قدرة لهم مع قدرة الله .. »

[وإذا كان ولابد ـ في القيادة الصحيحة الناجحة ـ من توفر عنصري الإيمان والقدوة، فقد كان المهدي غنيًّا عن التعريف بهذين العنصرين الأساسيين في القيادة، لم يكن يجامل أحدًا على حساب هذه الحقيقة، وقد أدان ـ وهو على فراش الموت ـ أقاربه

بسبب تصرفاتهم السيئة، وقد حدث بعد وصول الإنجليز إلى دنقلة، أن قبضوا على جماعة من أقارب المهدي، وقالوا لهم: «.. اكتبوا مِن عندكم كتابًا إلى المهدي ليرسل لنا أهالينا المأسورين عنده، ونحن نطلقكم بعد حضور أهالينا»، وقد كتب أقارب المهدي كتابًا أخبروه فيه بما حصل لهم، وبما رغبه الإنجليز منهم، فأرسل المهدي إلى أقاربه يقول لهم:

ليس لنا بكم حاجة، لأنكم ظلمتم أنفسكم، فلا فرق بينكم وبين الإنجليز عندنا! ومعاذ الله أن نرتكب ما لا ينبغي لنا بعد قوله ـ تعالى ـ:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وإن كان نظركم إلى القرابة، فهذه الآية تكفيكم فَاصِلًا عنا، وفيما حكاه الله عن نوح وابنه، وإبراهيم وأبيه، مقنع لأولي الألباب، وحاصل الأمر أننا لا نجيبكم لما طلبتم، ولا نشفق عليكم فيما يجري عليكم من الكفار .. وقد كنا سابقًا كاتبناكم بالهجرة إلينا فما هاجرتم، ورغبتم في مناولة الجِيَفِ، ومن أراد أن يأخذ من الجِيَفِ؛ فليصبر على عض الكلاب!]

إن المهدي هنا قائد ينظر بعين المصلحة العامة، لا القرابة الخاصة فلو أنه وهن أمام أقاربه الذين آثروا العافية على الجهاد معه، لسقطت كل حججه التي يُدين بها المتخلفين عنه، وانفض من حوله أولئك الذين يعانقون الموت بإشارة بسيطة منه، الدعوة هنا فوق كل شيء، والعلاقة الوحيدة بينه وبين الناس هي علاقة الإيمان بهذه الدعوة، وإيثارها على كل صلة، وفي ضربه المثل لأقاربه بقصة نوح وابنه، أبلغ درس وعظة][1].

(١) «الأصول الفكرية»، ص (١٨٩ ـ ١٩١).

ثانيًا: **حركتُه الدؤوب في أنحاء السودان** داعيًا إلى اللَّه - عز وجل - وثقت صلته بالقبائل المنتشرة فيها، وبالمريدين من أتباعه، بجانب اطلاعه على أحوال الناس ومعاناتهم، ومعاينته ظلم الولاة والحاكم، وانفعاله بذلك.

ثالثًا: **وضوح مفهوم «الدولة الإسلامية» في تصوره**، وأن الإسلام دين ودولة، وإدراكه وظيفة الدولة الإسلامية في حراسة الدين، وسياسة الدنيا بالدين، حتى اقترن ميلاد دولته ببناء مسجد، ومصنع للذخيرة، إلى جانب إنشاء مؤسسات الدولة ودواوينها، والقيام بإصلاحات اجتماعية شاملة.

رابعًا: **وعيه بكيد أعداء الإسلام**، وعدم انخداعه بحيلهم ووعودهم المعسولة؛ كما يعكس ذلك موقفُه من «جوردون».

خامسًا: **وضوح قضية «الولاء والبراء» في عقيدته**، ويبين ذلك رسالتُه إلى الخديوي توفيق محذرًا إياه من موالاة الإنكليز، وفي ضمن بعض رسائله يقول لأتباعه: «ولا تجاوروا من ترك الجهاد، أو فعل منكرًا من المنكرات».

سادسًا: **اهتمامه بتربية أتباعه، وتزكية نفوسهم**، فقد غرس فيهم الزهد في الدنيا، والتضحية بالنفس والمال في سبيل اللَّه، والبعد عن الآثام، فلا خمر تُشرب، ولا غَواية ترتكب، ولا لهو، ولا كذب، ولا حسد، وضرب لهم من نفسه أمثالًا لكل ما دعاهم إليه، وكانت الخلوة والمسجد والاجتماعات العامة هي وسيلته في الدعوة إلى هذه الفضائل.

وكان قوام تربيته إياهم الزهد والتقشف، وخفض الجناح لبعضهم البعض، وأن يساوي كل منهم أخاه في الفراش والأكل حتى الأمراء، كلهم على حد سواء، إلا في الأمر والنهي.

سابعًا: طبيعة الأوضاع الخارجية والداخلية في السودان، وشعور الناس بالظلم والقهر كما أسلفنا، كان له دور فعال في تحريك السودانيين للتمرد على هذه الأوضاع والالتفاف حول محمد أحمد المهدي قائدًا ثائرًا، ولو لم يكن هو المهدي المنتظر.

ثامنًا: الْعَقِيدَةُ الْقِتَالِيَّةُ:

ولقد كانت «العقيدة القتالية» لدى المهدي وأتباعه على السواء هي السر وراء انتصاراته المدهشة، فهذه العقيدة هي التي أدت دور غرفة الوقود في محرك السيارة، وربطت بين القائد وجنده بأقوى رباط، ودفعتهم دفعًا إلى الأمام لإنجاز الأهداف اللائقة بمنصب «المهدي المنتظر»، الذي يحفه التأييد الإلهي، ويتلقى أوامره - في زعمه - من الرسول ﷺ مباشرة، وتنصره الملائكة، الأمر الذي أشعل جذوة الحماس في قلوبهم، واستنفرهم للجهاد بحماس منقطع النظير، وبروح معنوية عالية.

لقد كان للمهدي القدرة على أن يلهب مستمعه، فلا يزال يروِّح على «الفحم» حتى يلهبه، فإذا جليسه يرى بعد الجلسة راحته في السير لا في الركوب، في الحركة لا في السكون، في الخروج لا في القعود.

لقد دعاهم المهدي أولًا إلى الهجرة، فلبوا نداءه من كل حَدَبٍ وصَوْبٍ، ثم حَرَّضهم على الجهاد فنفروا إليه زُرافاتٍ ووِحدانًا، يقول الدكتور/ عبدالودود شلبي - حفظه اللَّه - تعالى -:

«لقد بدأتْ الهجرة، وكانت استجابة الناس لها سريعة وواسعة، فقد شرع الناس في تعدية النساء والأطفال إلى جهة الغرب، وتركوا غالب ما معهم من الأمتعة والأموال، وكانت نفوسهم راضية رغبة فيما أعده اللَّه.

لقد صار المهدي في مأمن من الحكومة، وأصبح له جيش يتلهف شوقًا إلى الجنة، وأصبح الموت في الجهاد أملًا وأغنية حلوة، وقد جَرَّ رجلٌ صديقَه إلى المحكمة؛ لأنه

تمنى له الحياة طويلة! فتركُ الجهاد بعد ذلك؛ إما جهل بقدرة اللَّه، أو كفر بآيات اللَّه، أو جهل بعظيم ما عند اللَّه، أو معرفة[1] بخسة الدنيا، مع أن الأجل مؤقت معلوم، وإذا تم الأجل المعلوم، ومات الإنسان عند انقضاء أجله في الجهاد، فله من الخير ما لا يحصى كما هو معلوم، وإذا فر وترك الجهاد لا يزيد عمره، ولا يزول عنه المكتوب، بل من فر وترك الجهاد، وتخلّف عن أمر اللَّه بالجهاد يميته اللَّه أشنع ميتة، حسرتها تدوم، ولو كانت هذه الميتة بإقبال في الجهاد، لنال ما نال مع عدم الإحساس بألم الموت».

«فيا أحبابي ويا أصحابي: إن اللَّه غني عن عباده، ولو شاء أمرًا أبرمه وقضاه من غير واسطة أحد، وقد أهلك القرون السالفة، وأهل الأعصار الماضية الذين عصوا أنبياءهم بغير جهاد أحد، ولكن لعنايته ـ سبحانه ـ بهذه الأمة، وليكسبوا المزايا الدائمة، اختار أن يقهر أعداءه ـ سبحانه ـ على أيديهم، ويصفي قلوبهم بذلك، ويختبر إيمانهم وعدمه هنالك، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

واعلموا أن اللَّه لا يخلف وعده، فمن كان مؤمنًا مصدقًا بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وذلك أن من استُشْهِدَ من المؤمنين أراه اللَّه خزيَ أعدائه في الآخرة، بعد أن أكرمه اللَّه بما ناله في سبيل اللَّه، وأراه أن المؤمنين إخوانه في الدنيا بَعْدُ منصورون، وإن حصلت للكفار دولة في بعض الأحيان؛ فهي لاستدراجهم، ولكمال الخزي بهم، فإن اللَّه عالم بهم، وبيده تقلباتهم وتصرفاتهم، وهو خاذلهم كما أوعدهم بذلك في أكثر من آية، ووعد المؤمنين بالنصر في أكثر من آية؛ فمنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

(١) كذا، ولعله: أو عدم معرفة.

فمن ذلك يعلم المؤمن يقينًا أنه إذا حصلت للكافرين دولة في بعض الأحيان فإنما هي استدراج، وذلك لا يدوم، وإنما العاقبة للمتقين».

«واعلموا أيها الأحباب: أن في الجهاد تصفية الإيمان، والفوز بحسن رضا الرحمن، واعلموا أنه لابد من اختبار التوحيد والإيمان، وتجرد الصافين والصادقين بالامتحان، فيظهر عند ذلك ما كان منطويًا في سريرة العبد من الخلوص للَّه والخسران، فعند المصائب تتضح الأحوال.

وقد حكى لي بعض الإخوان أنه كان في خلاء يذكر الرحمن فأتى إليه ذيب فحضر في باله أنه لا يخلص إلا بطلوع الفجر، أو إدراك أحد من الإخوان، فتداركه عند ذلك نور الإيمان، فصرف عنه طائف الشيطان، فقال في نفسه: إنه لا ينجيني إلا اللَّه الواحد الديَّان، فرسى على حقيقة ما في قلبه من التوحيد والإيمان، فخلصه اللَّه ـ تعالى ـ مما يخاف بتوحيد الرحمن، قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

فافهموا يا أهل الإيمان، واعلموا أن المدافع والرصاص اختبار لأهل الإخلاص، وكذلك قعقعة السيوف والسنان، وجميع ما يقع في الحروب وغيرها من المصاعب والشنآن، فمن تحقق بالتوحيد علم أن بواطنها وتحركاتها بيد الرحمن، ومن أبعده اللَّه أضلّه الشيطان؛ فزاغ عن توحيد اللَّه، وخاف من تصرفات العدو في الميدان، وغاب قلبه عن التحقق، بأن ملكوت كل شيء بيد اللَّه من جميع الأكوان، وقد حكى بعض الإخوان أنه زاغ من رصاصة، وتذكر توحيد اللَّه، وقيامه بكل شيء، فاعتدل وهجم على الأعداء بقوة صدق الإيمان حتى فرغت الحرابة فرأى عجبًا من إكرام اللَّه للقائمين بنصرة دين الرحمن، فانظروا هذا مع قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

«وإذا كان الأمر كذلك، فيتعين على كل عاقل أن يتوجه لجهاد أعداء اللَّه؛ حتى

يخرجوا إلى الإسلام من أديانهم، أو تسلب نفوسهم من أبدانهم، فجيوش ذوي العناد مُدْبِرَةٌ مُدَمَّرَةٌ، وإن كانت بعقولهم مُقَدَّمَةً ومُدَبَّرَةً، وعزمات رجال الضلال مؤنثة مصغرة، وإن كانت ذواتهم مذكرة مكبرة! ألا ترى أن الله ـ تعالى ـ جعل كل مسلم يغلب منهم اثنين؟ كما قرر ـ سبحانه ـ أن للذكر مثلَ حظ الأنثيين!».

هذه الكلمات البسيطة في تعبيرها، كانت تشق طريقها إلى قلوب السودانيين، فيندفعون سراعًا إلى الموت، طلبًا للشهادة، وأملًا في الجنة، حتى إن أحدهم كان ينزل عن فرسه، ويقاتل راجلًا، ويتضاربون بالسكاكين للزحمة والالتحام الحاصل بين الفريقين، حتى يسقط المسلم والكافر على الأرض جميعًا، فنجد رِجْلَ المسلم على رأس الكافر! والعمامة حول البرنيطة! والبرنيطة حول العمامة! وكان بعضهم يوصي بعضًا فيقول: إن أُصِبتُ قبل أن أتمكن من الوصول والدخول في وسط العدو، فَجُرُّوا برجلي حتى تُلقوني وسط العدو، لعلي أتشفى في أعداء الله، ولو بضربة في آخر رمق مني، فأستريح من شؤم الدنيا.

ولم تتخلف المرأة السودانية عن القيام بدور في هذا الجهاد الذي شاركت فيه الرجل، وكثيرًا ما قامت النساء بدور مع الرجال في حملات المهدي، فقد كانت النساء السودانيات الجالسات يتسولن في شوارع الخرطوم جاسوسات لحساب المهدي، وهن اللواتي كشفن ضعف دفاع غوردون حول المدينة، وتسللن؛ ليخبرن المهدي بذلك، وساعدنه على احتلالها، ويقول محمد أحمد محجوب ـ الرئيس الأسبق لوزراء السودان ـ: لقد حضرت جدتي لأمي إحدى المعارك مع جدي ـ وكان قائدًا في جيش المهدي ـ وهي تحمل على ذراعيها طفلة في الثانية من عمرها، نعست الطفلة التي قدر لها أن تكون أمي، وإذا برصاصة تكشط كتف الأم، وتقطع نصف أذن الطفلة، ولو أن الرصاصة كانت أعلى نصف بوصة لما كنتم تقرءون هذا الكتاب اليوم»اهـ [(١)].

---

(١) «الأصول الفكرية»، ص (١٨٥ ـ ١٨٩).

ومن هذا نرى أن المهدي السوداني قائد لم يضيعه أتباعه، فما أحراه وأحراهم بقول القائل:

رِجَـالٌ دُعَـاةٌ لَا يَـفُـلُّ عَـزِيمَـهُـمْ تَـهَكُّمُ جَبَّارٍ وَلَا كَيْدُ مَاكِرِ

إِذَا قَالَ مُرُّوا فِي الشِّتَاءِ تَسَارَعُوا وَإِنْ جَاءَ حَرٌّ لَمْ يُخَفْ شَهْرُ نَاجِرِ[1]

* * *

(١) الناجر: كل شهر من شهور الصيف.

هَلْ تَأَثَّرَ الْمَهْدِيُّ السُّودَانِيُّ بِالدَّعْوَةِ الْوَهَّابِيَّةِ؟

لقد كانت الحركة الوهابية - كما يقول محمد إقبال -: «أول نبضات الحياة في الإسلام الحديث، وقد كانت هذه الحركة مصدر إلهام بصفة مباشرة أو غير مباشرة لمعظم الحركات الإسلامية الكبرى في آسيا وأفريقيا»اهـ (١).

ومن ثم لهج بعض الباحثين بالأثر القوي الذي أحدثته الحركة الوهابية في حركة المهدي السوداني، واستندوا في تدعيم رأيهم ببعض ملامح التوافق بين الحركتين (٢).

وذهبوا إلى أن «المهدي» إنما انتظم في سلك الصوفية؛ لأنه لم يجد أمامه مصدرًا للتعلم سوى المدرسة الصوفية، لكن حينما واتته الفرصة، ومكَّنه اللَّه في الأرض:

- نهى عن التوسل بالأولياء، والتمسح بالأضرحة.
- واعتبر اللجوء إلى غير اللَّه - تعالى - والحلف به شركًا في العبودية.
- وألغى المذاهب الفقهية، وأبطل الطرق الصوفية باعتبارها مصدر تفريق وتمزيق للجماعة المسلمة.
- وأعلن أن الكتاب والسنة هما المصدر الوحيد للعقيدة والشريعة.

وهاك نقولًا تبيِّن ذلك كله:

ففي دعوته إلى توحيد اللَّه - تعالى - بالتوجه والدعاء والعبادة يقول المهدي السوداني: «من كان يوحد اللَّه ويرجو لقاء اللَّه لا يميل إلى شيء دونه، ويكون ممن خسر دنياه وآخرته؛ لأن اللَّه هو المحيي والمميت والرزاق والمقيت، فمن نسب إلى غيره عطاء أو منعًا، أو نفعًا أو ضَرًّا، فقد ظلم بوضع الشيء في غير موضعه، ونسب نعمة

---

(١) «تجديد الفكر الديني في الإسلام»، ص (١٧٧)، ط القاهرة.

(٢) انظر: «الموسوعة الميسرة»، (١/ ٣١٩ - ٣٢٠)؛ و«الموسوعة الحركية»، (١/ ٢٣٤)، «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٨٩)، (٣٩٤)، (٣٩٧).

لغير من لم ينعم، ونسب ضرًّا لغير من لم يضر»[١] ، «وكل من نظر إلى شيء دون الله، واعتقد من قلبه أنه ينفع أو يضر، فقد أشرك في الحقيقة، إذ إن كل ما سوى الله باطل؛ لأنه لا قوام له بنفسه فكيف يقوم به غيره؟»اهـ[٢] .

وقال في أحد منشوراته: «لا تستغيثوا بأحدٍ دون الله، ولا تطلبوا أحدًا دون الله ولو نبيًّا رسولًا أو مَلَكًا، فجميع الأنبياء والمرسلين دَعَوْا إلى وحدانية الله، فلا تتوهموا وتنسبوا إلى رجل صالح شيئًا، أو تطلبوا منه شيئًا»اهـ[٣] .

وقال - أيضًا -: «اعلموا أن العظمة لله، فلا تحلفوا بشيء دون الله، فيجري الحلف في غير موضعه، وفي الحديث: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»اهـ[٤] .

وفي إحدى غزواته التقى المهدي بشخص يُسَمَّى عبدالنبي فغيَّر اسمه إلى عبدالباري[٥] ، وسئل المهدي عن حكم الدين في التمائم التي تستعمل للاستعاذة من السقم، والعين ونحوه، فقال: «هذا ليس مذهبنا، وإنما مذهبنا التوكل على الله، حيث إنه النافع والضار، وناصية كل شيء بيده، بل لا يخرج عن قدرته فلتة خاطر ولا لفتة ناظر، فينبغي لمن كان تابعًا لنا أن يسلك طريقنا، ويتوكل على الله وحده، ولا يلتفت إلى غيرٍ لا وجود له»اهـ[٦] .

وأمر المهدي بإلغاء لقب «درويش»، وهدد كل من يستعمله بمئة جلدة؛ «لأن من نفذ قلبه إلى ما عند الله من الخير، وترك ما في الدنيا من الضير، لا يسمى درويشًا، وإنما يسمى عاقلًا ومدركًا وبصيرًا وناصرًا لدين الله؛ حيث إنه وافق إرادة الله، وترك ما لا يريده، وذلك لنور البصيرة، فلزم من سمي مثل هذا بالدرويش - الذي هو ذاهب

(١) «منشورات المهدية»، ص (٣٠)، ولا يستقيم السياق إلا بحذف «لم» في الموضعين.
(٢) «السابق»، ص (٢٩).
(٣) «السابق»، ص (٤٦).
(٤) «منشورات الإمام المهدي»، (١/ ٤٦ - ٤٧).
(٥) «سعادة المستهدي»، ص (١٩١)، نقلًا عن «الأصول الفكرية»، ص (٢١٩).
(٦) «الأصول الفكرية»، ص (٢١٩ - ٢٢٠).

العقل - التعزيرُ والجلد»[١].

● وأعلن الخليفة عبدالله التعايشي - باسم المهدي - إلغاء المذاهب، والطرق الصوفية؛ حتى لا يبقى إلا الدين الخالص.

يقول التعايشي: «ومعلوم أنه - أي المهدي - على نور من ربه، وتأييد من رسول الله ﷺ وموعود أن يرفع المذاهب، ويطهر الأرض من الخلاف، ويعمل بالسنة؛ حتى لا يبقى إلا الدين الخالص، بحيث لو كان رسول الله ﷺ موجودًا لأقره على جميع أفعاله» اهـ[٢].

ويقول نعوم شقير في تاريخه: «كان أساس تعاليمه - أي المهدي - أن يعيد الدين إلى ما كان عليه في أول الإسلام، وقد رفع المذاهب الأربعة، وتفرد بمذهب اجتهادي خاص به، ومنع الناس من زيارة قبب (أضرحة) الأولياء التي كانوا يزورونها قبل المهدية»[٣].

أما عن كيفية انتقال هذه التأثيرات السلفية إلى المهدية السودانية، فقد قطع هؤلاء الباحثون شوطًا بعيدًا لمحاولة «استنتاج» هذه الكيفية، بطريقة لا تخلو من التكلف؛ فقد ذهب البعض إلى أنه من المحتمل «أن يكون الحجاج السودانيون تحملوا هذه الأفكار السلفية ونقلوها إلى السودان بعد عودتهم من مكة، أو أن يكون ذلك قد تم بوساطة الحركة السنوسية التي انتشرت زواياها وفروعها في أنحاء السودان بكثرة»[٤].

● يقول الدكتور يوسف فضل حسن:

«تؤكد المصادر أن الإمام المهدي نشأ في كنف الطريقة الصوفية، وعلى نهجها حقق مكانته في المجتمع قبل أن يفصح عن دعوته، ومع أن المصادر لا تشير إلى أن

---

(١) «منشورات المهدية»، ص (٢٩٧).
(٢) «الأصول الفكرية»، ص (٢٢٤).
(٣) انظر: «السابق»، ص (٢٣١).
(٤) «السابق»، ص (٢١٤).

الإمام المهدي قد زار الحرمين الشريفين، أو أنه تأثر مباشرة بفكر الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» عن طريق تلاميذه أو مؤلفاته، إلا أن محصلة دعوة الإمام المهدي ترجح أن الإمام المهدي، وإن لم يتصل بفكر الشيخ محمد عبدالوهاب مباشرة، فإنه ربما قرأ عنه أو سمع، ولا غرابة أن يصل عالم في سعة علم الإمام المهدي، وعمق دراسته للقرآن الكريم والسنة الشريفة، وقوة عارضته في الاستنباط، أن يصل إلى نهج يماثل نهج الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» أو الإمام «الشوكاني» (١١٧٢/ ١٢٥٠هـ - ١٧٥٨/ ١٨٣٤م).

إن النمط الذي اختاره محمد أحمد المهدي لإعلان دعوته القائم على فكرة «المهدي المنتظر» أقرب إلى فكرة المتصوفة منه إلى تعاليم الشيخ «محمد بن عبدالوهاب»، ولكن الدراسة التفصيلية لبرنامجه الإصلاحي تؤكد أن جوهر دعوته أقرب إلى دعوة التوحيد»[1].

التعقيب:

إن القول بأن المهدي السوداني تأثر بالدعوة الوهابية التجديدية قول لا يخلو من مسامحة؛ لأن محاكمة دعوة ما إنما تنبني على أصول منهجها ومرجعيتها، ولا جدال أن «مصادر التلقي» عند المهدي السوداني قد اختلط فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال، ولن تجدي محاولة التمسح بالحركة الوهابية السلفية المشرقة في ستر عيوب المنهج الصوفي المنحرف الذي اختطه المهدي السوداني.

إذن فماذا عن الملامح السلفية التي سبق ذكرها في دعوة المهدي السوداني؟

نقول: إن هذه الملامح ليست بالضرورة راجعة إلى تأثره بالدعوة الوهابية، ولكنها جزء من الجانب المشرق في دعوة المهدي السوداني النابع من الأدلة الشرعية الدالة على

(١) «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٨٩).

حقائق التوحيد، وإن تبني هذه المبادئ التوحيدية ليس حكرًا على الوهابية ولا غيرها؛ لكونها جوهر الإسلام الصافي، ودلالة العقل السليم، والفطرة المستقيمة.

ومَثَلُ حركة المهدي السوداني في ذلك كمثل دعوة الشيخ محمد عبده ومدرسته المسماة بالإصلاحية، فمع كونها اعتزالية النزعة، إلا أنها توافقت مع الدعوة السلفية في بعض الملامح المشرقة [1].

* * *

---

(١) انظر: «الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين»، (٢/٣٥٧ - ٣٧٩).

الْمَهْدِيُّ السُّودَانِيُّ فِي الْمِيزَانِ السَّلَفِيِّ

مما لا شك فيه أن حركة المهدي السوداني توافق حركة شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب في هدفها الشريف الذي هو: التمكين لدين اللَّه في الأرض، وتجديد شباب الإسلام، وإصلاح حال الأمة.

غير أنَّا إذا أردنا محاكمة منصفة وعادلة لأي حركة فلابد أن يتم ذلك بمحاكمة كُلٍّ من الغاية والوسيلة معًا، المقصد والمنهج معًا، أما الاقتصار على نبل الغاية، وصحة القصد وسلامة الشعار، مع غض الطرف عن الانحراف المنهجي، والقفز فوق المعايير العلمية الدقيقة انسياقًا وراء العاطفة الجياشة، والحماس المتدفق، فإنه يجني أول ما يجني على الحقيقة ذاتها، ويُبقي الأمة عرضةً لأن تُلْدَغ من نفس الجحر مرات ومرات ما دامت لا تستوعب دروس التاريخ وعبر الماضي.

والسؤال الآن: هل يكفي في اعتبارِ حركةٍ ما حركةً تجديدية إصلاحيةً أن ترفع شعار «الكتاب والسنة»؟

الجواب: لا، حتى يُقَيَّدَ ذلك بقَيْدٍ لازم، فنقول: «الكتاب والسنة بفهم الصحابة - رَضِيَ اللَّه عَنْهُمْ - ومن تبعهم بإحسان»؛ وذلك لأن الفرق الضالة من خوارج ومعتزلة وشيعة ومرجئة وقدرية وغيرها لا تزال في كل عصر ومصر ترفع هذا الشعار المطلق دون أن تقيده بهذا القيد المهم، وبالتالي تقع في الانحرافات التي تخرجها من الفرقة الناجية إلى الفرق النارية.

إذن إعلان المهدي السوداني أن «الكتاب والسنة هما المصدر الوحيد للعقيدة والشريعة»، ليس مما يُفرح به، حتى يُضَمَّ إليه هذا الضابطُ: «بفهم السلف الصالح» الذي يسد على الأمة أبواب الانحراف.

ولأن المهدي السوداني لم يفعل ذلك؛ تورط في انحرافات منهجية خطيرة لا يشفع

له فيها ـ عند منتقديه ـ حسنُ قصده، وسلامة نيته، ولا إنجازاته العملية التي سبق الإشارة إليها.

فمن هذه الانحرافات:

١ـ ادعاؤه أنه المهدي المنتظر مع عدم انطباق كل صفات المهدي الحقيقي عليه:

- فالمهدي يملك سبع سنين، والسوداني عاش بعد ادعائه المهدية أربع سنوات، من ١٢٩٨هـ إلى ١٣٠٢هـ (١٨٨١م إلى ١٨٨٥م).
- والمهدي ينعم الناس في عهده نعمة لم يعهدوا مثلها، وينتشر الرخاء، ويحثو المال بيديه حثوًا، وهذا لم يحدث في عهد السوداني.
- والمهدي الحقيقي يصلي عيسى ـ عليه السلام ـ أول نزوله ـ خلفه.
- والمهدي يملك الأرض، ويملؤها قسطًا وعدلًا، والسوداني عاش ومات داخل وطنه.

٢ـ دعواه التلقي المباشر عن رسول الله ﷺ في اليقظة:

إن أخطر ما ادَّعاه المهدي السوداني أنه نسب أقواله إلى النبي ﷺ فهو لا يفعل شيئًا إلا بأمره، ولا يُصْدِر حكمًا إلا بإذنه، وقد كان أساس مهديته قائمًا على هذه الصلة، ولم تكن نبوءاته إلا إخبارًا بما يقول: إنه سمعه من الرسول أو بلغه، فإذا ثبت بالدليل والواقع أن هذه التنبؤات لم تصدق، وأن هذه التوقعات لم تتحقق، أصبح الأساس الذي قامت عليه مهديته منهارًا.

وقد أسلفنا الأدلة على استحالة التلقي عن رسول الله ﷺ مباشرة في حال اليقظة بعد موته استحالة شرعية[١]، وأثبتت الوقائع الحسية أن رسول الله ﷺ لم يخاطب المهدي بما ادَّعاه، وأن عامة ما ادَّعاه المهدي السوداني، ونسبه إلى رسول الله ﷺ لم يتحقق منه شيء، وهاك أمثلةً من تنبؤاته التي لم يتحقق منها شيء:

---

(١) راجع «الفصل الثالث» من «الباب الثالث» ص(٢٥٩) وما بعدها.

● فقد ذكر أن رسول الله ﷺ «أمر - في حضرة من حضرات المهدي المزعومة - عزرائيل قائلًا:

«من هذه الليلة اصحب المهدي لا تفارقه»، وهذه الليلة المذكورة - التي حصلت فيها هذه الحضرة - غرة شعبان ١٢٩٨هـ ليلة الأربعاء، ثم تلا لنا - أي النبي ﷺ جميع الأحوال إلى دخول مكة، ومنازعة أهلها ومبايعة الضعفاء والغرباء أولًا، ثم مبايعة الشريف ملك مكة وجميع أشرافها معه»(١).

● وقال في رسالته إلى الخديو: «وبشرني سيد الوجود ﷺ بالنصر على كل من يعاديني، ولو كان الثقلين، وبأن من يقصدني بعداوة يخذلة الله في الدارين، وقلدني سيف النصر، وأخبرني بأني أملك جميع الأرض، وها أنا قادم إلى جهتك بجنود الله عن قريب - إن شاء الله - تعالى - ولابد من وقوعك في قبضتنا، ولو كنت في بروج مشيدة»(٢).

● وادَّعى في رسالته إلى المهدي السنوسي أن النبي ﷺ أخبره أنه من وزرائه، وأنه أوقف كرسيَّ عثمان رضي الله عنه، وقال: «هذا الكرسي لابن السنوسي»(٣).

● وبعد فتح «الأبيَّض» ادعى أن الرسول ﷺ بشره بأنه سيصلي في مسجد «بربر»، ثم المسجد الحرام بمكة، وفي مساجد المدينة المنورة، ومصر، وبيت المقدس، وبغداد، والكوفة(٤).

٣- إلزامه الناس بدعاواه الزائفة، بل تكفيرهم وقتالهم عليها:

وهنا مكمن الخطر الحقيقي في دعوى المهدي السوداني؛ لأن ادعاء المهدية بمجرده، وادعاء التلقي عن رسول الله ﷺ مباشرة يترتب عليهما ضرر لازم لصاحبه، أما أن

---

(١) «منشورات المهدية»، ص(١٨).

(٢) «منشورات الإمام المهدي»، (٢/٢٧٧) باختصار.

(٣) «منشورات المهدية»، ص (٧٣).

(٤) «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٩٥).

يُلزم الناس بهما إلزامًا، ويعاقبهم على رفض دعواه بالتكفير أولًا، ثم بمقاتلتهم عليها ثانيًا، فهذا هو العبث بشريعة اللَّه، والعدوان على حرمات المسلمين المعصومين في أبشع صورة.

وحين قال رسول اللَّه ﷺ «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ»[1]، فإنما كان يعني تحذير الذين يتقولون عليه ﷺ ما لم يقل؛ لأن في هذا تحريفًا للدين وعبثًا بالمصدر الثاني للتشريع بعد كتاب اللَّه ـ عز وجل ـ؛ لأن السنة حجة شرعية مستقلة.

● يقول المهدي ضمن رسالته إلى يوسف حسن الشلالي ومن معه:

«وقولكم: إنا قتلنا جملة من المسلمين المتوطنين بهذا المكان ظلمًا وعدوانًا باطل؛ لأنا ما قتلنا إلا أهل «الجرادة» بعد أن كذبونا وحاربونا، وقد أخبرنا النبي ﷺ وأخبر جميع أهل الكشف بأن من شك في مهديتنا فقد كفر، ودمه هدر، وماله غنيمة، فحاربناهم؛ لأجل ذلك، وقتلناهم.

وقولكم: إن الذين قتلناهم من العسكر مسلمون ومتبعون ما جاء به النبي ﷺ ونُسأل عن دمائهم بين يدي اللَّه ـ تعالى ـ باطل؛ لأن القطب الدرديري قد نص في باب المحاربة على أن أمراء مصر وعساكرهم وجميع أتباعهم محاربون لأخذ أموال المسلمين منهم كرهًا؛ فيجوز قتلهم، على أن النبي ﷺ أمرنا صريحًا بقتال الترك، وأخبرنا بأنهم كفار؛ لمخالفتهم لأمر الرسول باتباعنا، وإرادتهم إطفاء نور اللَّه ـ تعالى ـ فكيف نُسأل عنهم بعد هذا؟!»[2].

و«جاء في واحدة من أولى رسائله إلى الحاكم التركي رءوف باشا: وبعد: فعلى مقتضى المكاتبة فالأمر المطلوب كشفه أن دعائي الخلقَ على تقويم السنة، والهجرة بالدين مما عليه الطباع الزمنية، أمر من سيّد الوجود ﷺ فمن تبع صار من المقربين

(١) تقدم تخريجه ص (١١١).
(٢) «منشورات المهدية»، ص (٣١١ ـ ٣١٢).

الفائزين، ومن خالف خذله الله في الدارين وصده بقدرته، أما المواعظ للمؤمنين فهي مبينة، فمن لم يصدق طهره السيف، وليكن المعلوم أنه أتاني من الحضرتين - حضرة النبوة وحضرة الأقطاب - سيف، وأعلمت أنه لا يُنصر عَلَي مَن معه أحدٌ، ومن أتانا بالعداوة يأخذه الله؛ إما بالخسف، أو بالغرق، وذلك إعلام منه ﷺ[(١)].

وقال في بيان إعلان مهديته: «... وقد أخبر ﷺ مرارًا أن من شك في مهديتي كفر بالله ورسوله، وأن من عاداني كافر، وأن من حاربني يخذل في الدارين، وأمواله وأولاده غنيمة للمسلمين»[(٢)].

لقد كان من آثار هذه المغالطات فرض الوصاية على «الجن والإنس» فرضًا، يقول المهدي ضمن رسالته إلى الشلالي:

(وقولكم: قم واحضر عندنا، وتوجه بنا إلى محل الهدي: مكة المشرفة، فاعلموا أن توجهنا إنما يكون بأمر رسول الله ﷺ في الوقت الذي يريده الله، ولسنا تحت أمركم، بل أنتم ومن فوقكم تحت أمرنا، وأنا ولي الأمر الآن على سائر الإنس والجان»اهـ[(٣)].

وقال مخاطبًا محمد بك أبو السعود: «... وأنا ولي الأمر الذي تجب طاعته على جميع الأمة المحمدية»اهـ[(٤)].

بل إنه حاول فرض هذه الوصاية - بناءً على مزاعمه وادعاءاته - حتى على الحركات الإسلامية المعاصرة له، ولعل أوضح دليل على ذلك أسلوبه في مخاطبة محمدٍ المهدي

---

(١) «السابق»، ص (٣٠٨ - ٣٠٩).

(٢) انظر ص(٤٨٢).

(٣) «منشورات المهدية»، ص (٣١٤)، ويلاحظ أن المهدي كان «يحرص على أن يتجنب ذكر الحج، أو الدعوة إليه؛ لأنه كان يؤمن بأن الجهاد أولى وأهم من الحج، وقد تفادى المهدي أن ينص على هذا في رسائله، ونراه هنا يتخلص من طلب الشلالي دون أن يوافق أو يعارض فكرة الحج، أو يوضح موقعها من دعوته». اهـ. من حاشية محقق «منشورات المهدية»، الدكتور/ محمد إبراهيم أبو سليم، هامش ص (٣١٤).

(٤) راجع ص (٤٨٥).

السنوسي، ومحاولة جَرِّه إلى متابعته قسرًا، وقد سبق بيان ذلك، وكيف استخف السنوسي بمزاعمه، وأهمل الرد عليه(١).

لقد كان يهون الأمر لو أن هذه «الهلاوس» و«الضلالات» محصورة في دائرة «الصوفي المجذوب الهائم»، لكن الأمر يختلف تمامًا إذا انسحبت خيالاته إلى عامة الناس، فتصبح تشريعًا يُفرض بقوة السيف، فهذا ما لا يمكن إقراره؛ لأن «ذوق الصوفي المجذوب» في مثل هذه الحالة يحصل له وهو في حالة غير طبيعية بل غير سوية، الأمر الذي يجعله غير صالح؛ لأن يُخاطَب به المقيدون بالنواميس الطبيعية.

٤- جاء في «الموسوعة الميسرة»: أن المهدي السوداني «نسب إلى نفسه العصمة، وذكر بأنه معصوم نظرًا لامتداد النور الأعظم فيه من قِبَلِ خالق الكون إلى يوم القيامة»اهـ(٢).

فلو صح هذا عنه؛ فلا يبعد أن يكون المهدي السوداني قد تأثر بالصورة التي رسمها ابن عربي عن المهدي في قوله:

«والمهدي لا يخطئ؛ لأنه يقفو أثر رسول الله ﷺ، والإمام - أي المهدي - يتعين عليه عِلْمُ ما يكون بطريق التنزيل الإلهي، فما يحكم المهدي إلا بما يلقي إليه الملك من عند الله الذي بعثه إليه ليسدده، فعرفنا بذلك أنه معصوم، ولا يخطئ، ولا معنى للمعصوم في الحكم، إلا أنه لا يخطئ»(٣).

وابن عربي بدوره متأثر في تصوره عن المهدي بمفاهيم الشيعة عن أئمتهم، ومهديهم المزعوم.

وقال التعايشي في سياق كلامٍ له عن المهدي: «ومعلوم أنه على نور من ربه، وتأييد من رسول الله ﷺ، وموعود أن يرفع المذاهب، ويطهر الأرض من الخلاف،

---

(١) راجع ص (٥١١) وما بعدها.

(٢) «الموسوعة الميسرة»، (١/٣١٨).

(٣) انظر ص(٥٥٠).

ويعمل بالسنة، حتى لا يبقى إلا الدين الخالص، بحيث **لو** كان رسول الله ﷺ موجودًا لأقره على جميع أفعاله»اهـ، ولا أدري ما الذي أحوج التعايشي إلى هذه الشرطية ما دام مهديه يتلقى عن رسول الله ﷺ مباشرة؟!

والأسوأ من هذا كله غلو المهدي في صديقه التعايشي إلى حَدٍّ يفوق الوصف إذ يقول مشيرًا إلى عصمته:

«إن الخليفة عبدالله هو مني، وأنا منه، وقد أشار إليه سيد الوجود ﷺ؛ فتأدبوا معه كتأدبكم معي، وسلموا له ظاهرًا وباطنًا كتسليمكم لي، وصدقوه في قوله، ولا تتهموه في فعله، فجميع ما يفعله بأمر النبي ﷺ، أو بإذن منا، لا بمجرد اجتهاد منه، بل هو نائب عنه في تنفيذ أمره ﷺ، والقضاء بإشارته، فإن فعله بكم، وحكمه فيكم بحسب ذلك.

واعلموا يقينًا أن قضاءه فيكم، هو قضاء رسول الله ﷺ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فمن كان في صدره حرج لأجل حكمه؛ فذلك لعدم إيمانه وخروجه من الدين بسبب غفلته، وذلك بشاهد قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. ولا شك في شرك من استنكف عن حكم الله، وحكم رسوله، سيما بقوله ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْخَفِيُّ»، مع أنه خليفة الصديق، وأول المصدقين في المهدية، فانظروا لمكانة الصديق عند الله ورسوله بنص القرآن، وانظروا لمن أورثه الله مكانة الصديق بالباطن ـ بالخضر ـ عليه السلام ـ فهو ـ مسدد مؤيد من الله ورسوله، ويد من أيادي الله لنصرة دينه بإشارة سيد الوجود ﷺ، فحيث فهمتم ذلك، فالتكلم في حقه يورث الوبال والخِذلان وسلب الإيمان.

واعلموا أن جميع أفعاله، وأحكامه محمولة على الصواب؛ لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب... ولو كان حكمه على قتل نفس منكم أو سلب أموالكم، فلا تعترضوا عليه، ومن تكلم في حقه ـ ولو بالكلام النفسي ـ فقد خسر الدنيا والآخرة! ويُخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله؛ لأنه خليفة الصديق الذي قال الله في حقه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، وقال ﷺ: «مَا طَلَعَت شَمْسٌ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّينَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ»، وحيث علمتم ذلك، فهو بمنزلته الآن؛ لأن أصحابنا كأصحاب رسول الله ﷺ.

والمذكور خليفتنا في الدين، وخلافته بأمر من النبي ﷺ، فمن كان منكم مؤمنًا بالله واليوم الآخر، ومصدقًا بمهديتي، فليسلم للخليفة عبدالله ظاهرًا وباطنًا، وإذا رأيتم منه أمرًا مخالفًا في الظاهر؛ فاحملوه على التفويض بعلم الله، والتأويل الحسن.

وإنما أنذرتكم بهذا رحمة بكم، وشفقة عليكم، وليبلغ الشاهد منكم الغائب...

وإن الخليفة هو قائد جيوش المسلمين، وخليفتنا، والنائب عنا في جميع أمور الدين، وإياكم والوسوسة في حقه، وظن السوء به، وعدم الامتثال إليه في قوله، والمشاجرة له أو لأحكامه، ومن عاد فينتقم الله منه، ويسلطه عليه.

وهذا بيان أمر الله ورسوله، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد أتانا خبر من الخضر ـ عليه السلام ـ أن الأولياء اجتمعوا في بيت المقدس يقولون: الحمد لله الذي أظهر المهدي، وجعل عبدالله وزيره!

ثم وجد ـ أي الخضر ـ اجتماع الشياطين، وهم يقولون: كان عيشنا بالغش والخداع، والمكر والكذب، فأتى المهدي، وقطع علينا عيشنا، ولولا أن عبدالله وزير له، وكان الخليفة غيره، لكنا نجد في المهدية دخولًا!»[1].

---

(١) «منشورات المهدية»، ص (٦٦ - ٦٩)؛ و«منشورات الإمام المهدي»، (١/ ٣٠)، وما بعدها.

٥ـ مَلَامِحُ الصُّوفِيَّةِ الْمُنْحَرِفَةِ فِي مَنْهَجِ الْمَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ:

لقد نشأ المهدي السوداني وترعرع في كنف المنهج الصوفي الذي تشبع به المجتمع السوداني، وكان سِمَتَهُ الغالبة، وسلك الطريقة السمانية، ولم يكن صوفيًّا معتادًا، بل رأسًا وشيخ طريقة، وقد تغلغل الفكر الصوفي في وجدانه وشكَّل هويته، وهاك بعض مظاهره:

- كانت مصادر التلقي عند المهدي انعكاسًا لصوفيته المحرفة؛ كالكشف والإلهام والرؤى المنامية والحضرات الصوفية التي يحضرها ـ بزعمه ـ الأولياء والأقطاب والأبدال، بل الرسول ﷺ والخلفاء الأربعة، ناهيك عما سبق الإشارة إليه من دعواه التلقي المباشر عن رسول الله ﷺ.
- أعلن المهدي حظرًا على تبادل الكتب إلا كتب الأصول؛ كالمصحف الشريف والصحيحين، وغيرها مما أجازه؛ كإحياء علوم الدين للغزالي، الذي يعد دستور الفكر الصوفي[1].
- تبنى المهدي فكرة القطبية التي يزعم الصوفية أن الكون مرتكز عليها، وأنها جوهر الكون، وعليها يدور، وأنها أساس السعادة[2].
- عَكَسَ كلام خليفته التعايشي في عصمته، وكلام المهدي في حق التعايشي الصورة

(١) وهذا يعكس «الجفاء» بل «العداء» التقليدي بين الصوفية والعلم، وهو أشهر من أن ندلل عليه.

(٢) ولما تحركت الحكومة؛ لضرب المهدية في جزيرة «أبا»، كتب المهدي خمس رايات رفع عليها شعار «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وعلى أربعة منها كتب على كل واحدة منها اسم واحد من الأقطاب الأربعة المتصوفة، وهم: الجيلاني، والرفاعي، والدسوقي، والبدوي، وكتب على الخامسة «محمد المهدي خليفة رسول الله». اهـ. من «الموسوعة الميسرة»، (١/٣١٧).
وقال في أحد أوائل بياناته: «... وأخبرني سيد الوجود ﷺ بأني المهدي المنتظر، وخلفني ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالجلوس على كرسيه مرارًا، بحضرة الخلفاء الأربعة، والأقطاب، والخضر ـ عليه السلام ـ ...» إلى أن يقول: «وفي ساحة الحرب يحضر معهم سيد الوجود ﷺ بذاته الكريمة، وكذلك الخلفاء الأربعة، والأقطاب، والخضر ـ عليه السلام ـ». اهـ. من «منشورات المهدية»، ص (٢٤).

الصوفية النموذجية في علاقة المريد بشيخه، بالتسليم المطلق له، وأن يكون بين يديه كالميت بين يدي من يغسله[١].

لقد كان المهدي ابنًا بارًّا بالصوفية، فهي التي فتحت له باب المهدية، ومنحته جواز المرور إليها، وبذلت له الأدلة والأسانيد، وكان لكتب ابن عربي[٢] الأثر البليغ في رسم صورة المهدي التي تقمصها، وتوحد معها، واستلهم منها خططه وأفكاره.

* * *

---

(١) انظر: ص (٤٥٥).

(٢) لقد أسهب ابن عربي في الحديث عن المهدي المنتظر، وصبغه بصبغة صوفية، حيث جعله قطبًا صوفيًّا، وراجت مؤلفاته التي حوت الحديث عن المهدي مثل «الفتوحات المكية»، و«عنقاء مُغْرِب» في السودان، إلى جانب كتاب «لواقح الأنوار في طبقات الأخيار» للشعراني، وقد تأثر بهذه الكتب المهدي السوداني، والمهدي الجونبوري في «الهند»، حتى قال بعض الباحثين: إن ابن عربي مَهَّد ـ بهذه الكتب ـ الطريق للقادياني والجونبوري، خاصة في فكرة «ختم الولاية»، و«نبوة الأولياء»، وانظر: «فرق الهند» ص(٣٠٦، ٣١٢ ـ ٣١٣).

تَأَثُّرُ الْمَهْدِيِّ السُّودَانِيِّ بِافْتِرَاءَاتِ ابْنِ عَرَبِيٍّ

لقد خلط ابن عربي خصائص وصفات المهدي التي وردت في السنة الصحيحة، بتلك التي وردت في الأحاديث الضعيفة، وأضاف إليهما أكاذيب فاحشة استمدها من «**مصدرٍ ثالث**»، فكان هذا الخليط هو الأساس الذي بنى عليه المهدي السوداني دعواه، وهاك بعض هذه الأوصاف «الدخيلة» على السنة الشريفة من كلام ابن عربي[(١)]:

- فمن ذلك قوله: «إن لهذا الخليفة مَلَكًا يسدده من حيث لا يراه؛ أي ملك الإلهام».
- وقوله: إنه «يرفع المذاهب من الأرض، أعداؤه مقلدة العلماء؛ لما يرونه من الحكم بخلاف ما ذهب إليه أئمتهم».
- وقوله: «يبايعه العارفون باللَّه من أهل الحقائق عن شهود وكشف بتعريف إلهي، فشهداؤه خير الشهداء، وأمناؤه خير الأمناء».
- وقوله: «يعرف من اللَّه ـ علم الغيب ـ قدر ما تحتاج إليه مرتبته؛ لأنه خليفة مُسَدَّد».
- وقوله: «يفهم منطق الحيوان، ويسري عدله على الإنس والجان، من أسرار علم وزرائه الذين استوزرهم اللَّه له، وهم ـ أي الوزراء أو الخلفاء ـ على أقدام رجال من الصحابة، صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه».
- وقوله: «وهو أعلم الخلق باللَّه، ولا يكون في زمانه، ولا بعد زمانه أعلم باللَّه منه، فهو والقرآن أخوان، كما أن السيف والمهدي أخوان، والمهدي حجة اللَّه على أهل زمانه، وهي درجة الأنبياء».
- وقوله: «والمهدي لا يخطئ؛ لأنه يقفو أثر رسول اللَّه ﷺ، والإمام ـ أي المهدي ـ يتعين عليه علم ما يكون بطريق التنزيل الإلهي، فما يحكم المهدي إلا بما يلقي إليه

---

(١) كما وردت في «الفتوحات المكية»، (٣/٣٢٧ ـ ٣٣٥)، وليكن منك على ذُكر قول ابن عربي في شأن «فتوحاته» هذه: «إنما الحق يُملي لنا على لسان مَلَك الإلهام جميع ما نسطره». اهـ. (١/٢٨٧).

المَلَك من عند اللَّه الذي بعثه إليه؛ ليسدده، فعرفنا بذلك أنه معصوم، ولا يخطئ، ولا معنى للمعصوم في الحكم إلا أنه لا يخطئ».

إن هذه الافتراءات تفوح منها رائحة مميزة يدركها كل خبير بالمذهب الشيعي الرافضي، فقد استمدها ابن عربي من «أكذب» الفرق الضالة الشيعة الرافضة[1]، وكانت كتب ابن عربي «القنطرة» التي عبرت عليها الأفكار الشيعية إلى العقول الصوفية.

ولقد تكلف المهدي السوداني، وأرهق نفسه، وأرهق معها الآخرين، في محاولة تقمص هذا التصور الغريب لشخصية المهدي التي رسمت ملامحَها كتاباتُ ابنِ عربي، وإنَّ تقبله افتراءات ابن عربي يزعزع - بل يزلزل - الثقة في المستوى العلمي الذي بلغه المهدي السوداني، ويكشف أنه «متواضع» إلى حدٍّ كبير، ويجعله أدنى من مستوى رجل من عوام أهل السنة؛ لأن هذا العامي لم يتورط في كبيرة القول على اللَّه بغير علم، كما يجسد لنا خطر الفكر الصوفي الدخيل على الإسلام، وكيف أن «احتكار» الصوفية لمنابع التعليم والتربية في البيئة السودانية المنغلقة على نفسها في ذلك الوقت يكمن وراء انحصار المهدي السوداني في دائرة تأثيرها، وحرمانه من تأثير حركات إسلامية معاصرة له مارست دورًا تجديديًّا حقيقيًّا وعميقًا أعني حركة شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب - رحمه اللَّه -، ثم حركة الإمام محمد بن علي السنوسي - رحمه اللَّه -.

- فإن قال قائل: إذا كان المهدي السوداني صوفيًّا لحمًا ودمًا، فلماذا إذن ألغى الطرق الصوفية؟

فالجواب - والعلم عند اللَّه - تعالى -:

أن هذا لا يعني بالضرورة تخليه عن «الفكر» الصوفي، وانحيازه إلى منهج أهل

---

(١) راجع: ص (١٧٣).

الحديث، أهل الحق، أهل السنة والجماعة، فإن هذه الخطوة كانت «تكتيكية» ولم تكن «استراتيجية»، بمعنى أن مقصوده كان توحيد الطرق المتعددة في طريقته المتفردة، كي تدور الحركة حول قطب واحد، لا أقطاب متعددة، متنافرة، ولا شك أن طريقته المتفردة هي الطريقة الصوفية التي يدين لها بالولاء، وينطلق من مفاهيمها، ويحترم مرجعيتها، وعلى أساسها بنى دعواه المهدية وغيرها من الدعاوى والمجازفات.

لقد ظل الأساس الصوفي الذي قامت عليه دعوته ملازمًا له طول حياته، وبقي كامنًا في عقله ووجدانه إلى آخر عمره[1]، وكان يلجأ إليه أحيانًا في محاججة أعدائه وخصومه كما تفصح عنه مكاتباته ومواقفه.

ولم يثبت بصورة حاسمة أنه تخلى أو تراجع أو تبرأ من ضلالات الصوفية، وهو - وإن كان رفع شعار «الكتاب والسنة» فقط لا غير - فقد كان لسان حاله يقول: «الكتاب والسنة بفهم الصوفية»، وكيف يتخلى عن هذا المنهج الصوفي وهو أساس دعوته وجوهرها، فإننا لو خلعنا عن دعوته الملامح الصوفية؛ «كالتلقي عن الرسول ﷺ مباشرة يقظةً، وتنصيبه إياه مهديًّا، وحكمه أن من خالف مهديته فقد كفر، واستناده إلى الكشف والإلهام،..» إلى آخر ما ذكرناه سابقًا، لبقيت دعواه المهدية خواءً، ولانهارت مهديته من أساسها، وصار - من هذه الحيثية - كغيره من مدعي المهدية سواءً بسواء.

٦- مَوْقِفُهُ مِنَ الْخِلَافِ الْفِقْهِيِّ وَالْمَذَاهِبِ الْفِقْهِيَّةِ:

بما أن المهدي كان - في زعمه - يتصل برسول الله ﷺ مباشرة، ويتلقى عنه، ويتحدث باسمه؛ كقوله: «أخبرني سيد الوجود ﷺ»، وقوله: «إن أمرنا ناشئ عن إلهام صائب مع المشورة المسنونة»؛ فإنه كان يرى في نفسه أنه في وضع يُمَكِّنُه من استنباط الأحكام، ومن ثم لم يتقيد بمذهب خاص في أحكامه، وادَّعى الاجتهاد، وطرح العمل بالمذاهب الأربعة، وقد سئل مرة: «معلوم أن المذاهب أربعة: الحنفي، والشافعي،

(١) انظر: «الأصول الفكرية»، ص (١٥٨).

والمالكي، والحنبلي، فما مذهب المهدي؟»، فقال: «هؤلاء الأئمة ـ جزاهم اللَّه ـ دَرَّجوا الناس، ووصلوا إلينا، فجزاهم اللَّه خيرًا، فهم رجال ونحن رجال، ولو أدركونا لاتبعونا، وإن مذهبنا هو الكتاب والسنة والتوكل على اللَّه، وقد طرحنا العمل بالمذاهب ورأي المشايخ»[(١)].

هكذا ـ وبجرة قلم ـ أبطل المهدي العمل بالمذاهب! وأحل محلَّها مذهبه الخاص به، وهذه من أشنع مجازفاته، التي يتجلى فيها مفهومه السطحي لقضية الخلاف الفقهي، ومبلغه من علم الشريعة، وقد تأثر في ذلك بقول ابن عربي في شأن المهدي: «يرفع المذاهب من الأرض... أعداؤه مقلدة العلماء؛ لما يرونه من الحكم بخلاف ما ذهب إليه أئمتهم... وهو أعلم الخلق باللَّه... ولا يكون في زمانه، ولا بعد زمانه أعلم باللَّه منه... والمهدي حجة على أهل زمانه... وهي درجة الأنبياء»اهـ[(٢)].

وابن عربي نفسه يسد علينا باب الاستفسار عن مستنده في هذه الدعاوى؛ لأنه ادعى أن ما يكتبه ليس عن روية وفكر، وإنما هو نفث روعي على يد «مَلَكِ الإلهام»، من إملاءٍ إلهي، وإلقاء رباني، أو نفث روحاني، يقول ابن عربي: «إن ترتيب الفتوحات المكية لم يكن لي من اختيار، ولا عن نظر فكري، وإنما الحق يملي لنا على لسان ملك الإلهام جميع ما نسطره»اهـ[(٣)].

ويقول ـ أيضًا ـ: «إني رأيت رسول اللَّه ﷺ في مبشِّرة أريتها في العشر الأواخر من المحرم سنة ٦٢٧هـ بدمشق، وبيده كتاب، فقال: هذا كتاب «فصوص الحكم»، خذه واخرج به إلى الناس»اهـ[(٤)].

كذلك يوصد المهدي نفسه في وجهنا باب الاستفسار عن مؤهِّلاته العلمية التي

---

(١) انظر: «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر»، ص (٣٩٣).
(٢) «الفتوحات المكية»، (٣/٣٢٨).
(٣) «السابق»، (١/٢٨٧).
(٤) انظر: «الأصول الفكرية»، ص (١٤٥).

رقته إلى منزلة إمام الأئمة المجتهد المطلق الذي يقلده أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، فضلًا عمن عداهم؛ لأن المؤهل الوحيد له هو: دعوى الإلهام، والتلقي المباشر عن المعصوم ﷺ إذن ليس لنا أن نتساءل عن حظه من علوم الحديث والفقه والتفسير وأصول الفقه... إلى آخر هذه العلوم الضرورية للاجتهاد؛ لأنه هكذا - وبضربة حظ - نال علمًا وهبيًّا يغنيه عن «قال، وحدثنا»، ويحميه من أن يحاسَبَ: «من أين لك هذا؟». إن هذا فعل «الحواة» المهرة، وليس فعل أئمة الهدى!

ينبغي أن تُقَوَّمَ هذه الحركة على أساس العلم الصحيح، لا على أساس دعاواه ومجازفاته؛ لأننا - وببساطة - نقطع بأنه ليس المهدي المنتظر طبقًا للأدلة الشرعية والحسية والواقعية، وما ادعاه وهوَّش به وهدَّد من لا يقر بمهديته المزيفة كلا شيء عند العالم المحقق، والناقد البصير، وإنما ينطلي على ضعاف العقول، وخفافيش البصائر.

أما هؤلاء الذين غضوا الطرف عن تجاوزات المهدي ومغالطاته، وسلطوا الضوء على إنجازاته وخاصة في محاربة الإنكليز، وامتدحوا منهجه بأنه «كان سلفيًّا متأثرًا بدعوة شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب»، وادَّعوا أن من أدلة سلفيته المزعومة أنه أبطل العمل بالمذاهب الفقهية، وفتح باب الاجتهاد في الدين؛ فقد أخطأوا من طريقين:

الأول: أنه حين ألغى المذاهب الفقهية الأربعة أبدلها بمذهبه الشخصي المُحْدَثِ تحت ستار القرآن والسنة بفهمه هو، أو تحت ستار دعوى الإلهام، ليس هذا فحسب، بل إنه خلع رتبة الإمام المعصوم على صاحبه التعايشي، الذي لم يكن له حظ يذكر من العلم الشريف، بل قيل: إنه كان يشتغل بالسحر والتنجيم[1]، وغلا فيه حتى قال في حقه:

«... فجميع ما يفعله بأمر النبي ﷺ، أو بإذن منا، لا بمجرد اجتهاد منه، بل هو نائب عنه في تنفيذ أمره ﷺ، والقضاء بإشارته... واعلموا يقينًا أن قضاءه فيكم، هو

(١) كما في «الأصول الفكرية»، ص (١٥٤)، هامش رقم (٨١).

قضاء رسول اللَّه ﷺ... فمن كان في صدره حرج لأجل حكمه، فذلك لعدم إيمانه وخروجه من الدين بسبب غفلته» إلى أن قال: «... فحيث فهمتم ذلك، فالتكلم في حقه يورث الوبال والخِذلان وسلب الإيمان، واعلموا أن جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب؛ لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب... ولو كان حكمه على قتل نفسٍ منكم، أو سلب أموالكم، فلا تعترضوا عليه، ومن تكلم في حقه، ولو بالكلام النفسي؛ فقد خسر الدنيا والآخرة، ويُخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة والعياذ باللَّه». اهـ مختصرًا.

إذن فدعوته إلى إلغاء العمل بالمذاهب ليست مما يُفرح به، ولَأن يبقى مقلدًا محصورًا في اجتهادات المذاهب المحررة، خير وأسلم وأهون شرًّا من أن يستبدل بها مذهبه المبني على دعوى الكشف والإلهام، لا يَخْطِمُه خِطام، ولا يَزُمُّه زِمام، ولا يحكمه لجام.

الثاني: أن من الخطإ الربطَ بين رفض المذاهب الفقهية وجحودها وبين السلفية، فالسلفية الحقة تعرف للأئمة قدرهم، وتنهل من علمهم، ولا تتعصب لأحد منهم، ولا ترى بأسًا في التمذهب بأحد المذاهب الفقهية، وإنما البأس في تقديم أقوال الرجال على قول الصادق المصدوق ﷺ، وإن أئمة المذاهب هم أنفسهم من أئمة أهل السنة والجماعة، وحراس منهجهم، تجمعهم راية واحدة في الأصول، وإن اختلفوا في الفروع، وقد تواترت النقول عنهم في وجوب اتباع الدليل من الكتاب والسنة، ونبذ أقوالهم إذا خالفتهما.

وليس أدل على ما ذكرنا من أن شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب وسائر علماء الدعوة الوهابية المباركة كانوا حنابلة على مذهب الإمام أحمد ـ رحمه اللَّه تعالى ـ، والشيخ محمد بن عبدالوهاب لم يدَّعِ الاجتهاد، ولا دعا أحدًا إلى تقليده، قال الشيخ عبداللَّه بن الشيخ محمد في رسالته التي كتبها لما دخلوا مكة سنة ١٢١٨هـ:

«ولا نستحق مرتبة الاجتهاد المطلق، ولا أحد لدينا يدَّعِيها، إلا أننا في بعض المسائل إذا صح لنا نص جلي من كتاب أو سنة غيرُ منسوخ ولا مُخَصَّصٍ ولا معارَضٍ بأقوى منه، وقال به أحد من الأئمة الأربعة؛ أخذنا به، وتركنا المذهب، كإرث الجد والإخوة فإنا نقدم الجد بالإرث، وإن خالف مذهب الحنابلة»، وقال أيضًا ـ رحمه اللَّه ـ: «ولا مانع من الاجتهاد في بعض المسائل دون بعض، فلا مناقضة لعدم دعوى الاجتهاد، وقد سبق جمع من أئمة المذاهب الأربعة إلى اختيارات لهم في بعض المسائل مخالفين للمذهب الملتزمين تقليد صاحبه»[1].

٧ـ اجْتِهَادَاتُهُ الْفِقْهِيَّةُ الْغَرِيبَةُ، وَإِلْزَامُهُ النَّاسَ بِهَا:

إن اجتهاد المهدي ليس الاجتهاد الذي تنصرف إليه الأذهان عند إطلاق هذه الكلمة، إنه اجتهاد من نوع خاص، إنه اجتهاد يخدم ثورته، ويدعم دولته قبل أي شيء آخر، وأسوأ ما في الأمر أنه حَجَرَ على الناس، وألزمهم إلزامًا باختياراته، بل تهدد وتوعد من يخالفه، كما مرت أمثلة ذلك مرارًا.

جاء في منشور «حياة الدين الكبرى» الصادر في ذي الحجة سنة ١٣٠١هـ قوله لأنصاره:

«والذي ينقذكم من الهلاك، ويورثكم عظيم المكانة عند اللَّه، هو أن تتركوا معارفكم السابقة، وتصغوا لدلالتي بأذن واعية حيث وجب عليكم ذلك، ولزمكم الانقياد لي والخروج عما عندكم». اهـ[2].

* * *

(١) «عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية»، د. صالح العبود، ص (٢٢١).

(٢) «منشورات المهدية»، ص (٤٨).

(١٩) مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِاللهِ الْقَحْطَانِيُّ (ت ١٤٠٠هـ)

الذي قاد المجموعة المسلحة التي استولت على الحرم المكي الشريف في مستهل عام ١٤٠٠هـ، حيث أغلقوا أبواب المسجد أثناء تأدية المصلين صلاة الفجر، وبمجرد انصراف الإمام من الصلاة صاح صائحهم: «اللَّه أكبر... ظهر المهدي»، ثم أخذوا يذيعون بيانات من مكبر الصوت فيها ما ظنوه أدلة على أن زعيمهم هو «المهدي المنتظر»، وادَّعوا انطباق الصفات الواردة في الأحاديث عليه، ثم استندوا إلى زعم تواتر رؤى منامية تؤكد ما قالوه[١]، وقاموا بمبايعته بين الركن والمقام، وإذا بالجميع يفاجَئون بالطلقات النارية تتبادل من داخل المسجد وخارجه، وتتصاعد الفتنة حين تحلق الطائرات فوق الحرم لتقصف المآذن التي تحصن بها هؤلاء المسلحون، وتدور المعارك العنيفة أيامًا متوالية تزلزل فيها البلد الأمين، وتزلزلت معه قلوب المؤمنين في شتى أرجاء المعمورة، غضبًا على كل من انتهك حرمة البلد الحرام، والشهر الحرام، والمسجد الحرام، والدم الحرام، ويستمر القتال والإلحاد في الحرم، حتى ينتهي باستسلام بقايا أولئك المتأولين الذين شُبِّه عليهم، وظنوا أن زعيمهم هو المهدي الذي جاءت فيه الرواية[٢]، بعد أن قُتل مهديهم، ونشرت صورة جثته.

---

(١) راجع: ص (١٩٦)، وقد قال العلامة ابن باز ـ رحمه الله ـ إبان تلك الفتنة: «أما اعتماد المنامات في إثبات كون فلان هو المهدي فهو مخالف للأدلة الشرعية ولإجماع أهل العلم والإيمان؛ لأن المرائي مهما كثرت لا يجوز الاعتماد عليها في خلاف ما ثبت به الشرع المطهر؛ لأن الله ـ سبحانه ـ أكمل لنبينا محمد ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ ولأمته الدين، وأتم عليهم النعمة قبل وفاته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم إن المهدي قد أخبر النبي ﷺ أنه يحكم بالشرع المطهر، فكيف يجوز له ولأتباعه انتهاك حرمة المسجد الحرام وحرمة المسلمين وحمل السلاح عليهم بغير حق؟». اهـ. «جريدة عكاظ»، ١٨ من المحرم ١٤٠٠هـ.
ونضيف أن الأمور الكونية القدرية ـ ومنها أشراط الساعة ـ واقعة لا محالة، ولم يكلفنا الله ـ عز وجل ـ بإيجادها، وتعوُّذُ رجل بطائفةٍ في البيت، وبيعته بين الركن والمقام من الجائز عقلًا أن يقعا بتدبير من البشر، كما أن المرائي المنامية يمكن أن تصدر عن حديث نفس أو وساوس شيطانية، إن المهدي الحقيقي تصنعه المهدية التي كتب الله له، ولا يصنع هو المهدية.

(٢) قال ابن سعد في «الطبقات»: أخبرنا الواقدي، قال: سمعت مالك بن أنس يقول: «خرج محمد بن=

فإلى اللَّه المشتكى من علم ناقص، وتأويل مُضِل، وعاطفة هوجاء، وإهدارٍ للاعتبار بالأشباه والنظائر في التاريخ القريب والبعيد[1]، واستبداد بالرأي بمعزل[2] عن مشورة

= عجلان مع محمد بن عبدالله بن حسن حين خرج بالمدينة، فلما قُتِل محمد بن عبدالله، وولي جعفر ابن سليمان بن علي المدينة بعث إلى محمد بن عجلان، فأُتي به، فبكّته، وكلمه كلامًا شديدًا، وقال: «خرجتَ مع الكذاب»، فلم يتكلم محمد بن عجلان بكلمة إلا أنه يحرك شفتيه بشيء لا يُدْرَى ما هو؟ فيُظَنُّ أنه يدعو، فقام من حضر جعفر بن سليمان من فقهاء أهل المدينة وأشرافهم، فقالوا: «أصلح الله الأمير! محمد بن عجلان فقيه أهل المدينة، وعابِدها، وإنما شُبِّه عليه، وظن أنه المهدي الذي جاءت فيه الرواية»، فلم يزالوا يطلبون إليه حتى تركه». اهـ. وانظر: «الوسيط في أدباء شنقيط»، ص(٣٥ - ٣٨)؛ و«المختار المصون من أعلام القرون»، (٣/ ١٨٨٦).

(١) فما من شك أن القوم لو استنطقوا هذا التاريخ لأخبرهم عن كثيرٍ سبقوهم في هذا الطريق، ولكَبَحَ جماحَهم حصادُ فتن مدعي المهدية، وما أكثرهم!

(٢) قال عمر بن عبدالعزيز - رحمه اللَّه - تعالى -: «إذا رأيت قومًا يتناجون في دينهم بشيء دون العامة، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة»، رواه اللالكائي في «أصول الاعتقاد»، (١/١٣٥)، (٢٥١)، ففي مثل هذه الفتنة لو نوقشت المسألة في وَضَحِ النهار وفي الهواء الطلق؛ لسارع العلماء بتذكيرهم بالأحاديث الصحيحة الصريحة في النهي عن حمل السلاح في الحرم، أو ربما وعظوهم بما روى حفص ابن غياث قال: قلت لسفيان الثوري: يا أبا عبدالله، إن الناس قد أكثروا في المهدي، فما تقول فيه؟ قال: «إن مَرَّ على بابك، فلا تكن منه في شيء حتى يجتمع الناس عليه». رواه أبو نعيم في «الحلية»، (٧/٣١).
أو ربما أشاروا عليهم أن يصعد مهديهم المزعوم فوق سطح الحرم الشريف، فإن قُتل بان أنه ليس المهدي الحقيقي الذي سيملك سبع سنين، وعُصمت الدماء التي أريقت، ولهذا «الاختبار» لحقيقة مدعي المهدية أصل في حديثين شريفين:
الأول: وهو من أعلام نبوته ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما فتحت خيبر أُهديت لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: «اجْمَعُوا لِي مَنْ كَانَ مِنَ الْيَهُودِ هَهُنَا»، فسألهم النبي ﷺ عن أشياء، ثم قال لهم: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟» قالوا: نعم، يا أبا القاسم، فقال: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟» فقالوا: نعم. فقال: «فَمَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟» فقالوا: أردنا **إن كنت كاذبًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيًا لم يضرَّك**. رواه الإمام أحمد في «المسند»، (٩٨٢٦)، والبخاري(٤/٦٦)، ومسلم (٢١٩٠)، وانظر «سنن أبي داود» (٤٥١٠).
والثاني: أنه كان بالمدينة رجل يهودي يُدعى ابن صياد، وكان شبيهًا بالدجال في كثير من صفاته، وكان ﷺ متشككًا في أمره حيث لم ينزل عليه وحي بذلك، وكان عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يجزم بأنه المسيح الدجال، وكذلك ابن عمر، ولما لقيه النبي ﷺ، قال عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «ذرني يا رسول الله، أضرب عنقه»، فقال له رسول الله ﷺ: **«إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَا يَكُنْهُ فَلَا خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ»**. رواه مسلم في صحيحه (٤/٢٢٤٤)، (٢٩٣٠).

أهل العلم والإيمان؛ افتئاتًا على أخص خصائص الموقعين عن رب العالمين، أعني: الإفتاء في النوازل الكبرى، والتبصير في الفتن التي إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل.

ويا أسفًا على «سلفية» مزعومة تنساق وراء التقليد الأعمى، وتحذو حذو الصوفية، فتنصاع لمنهجهم السقيم في تغييب بصيرة النقل والعقل باقتياد الناس عبر «المنامات» كأنها وحي منزل، ولو أدى بهم ذلك إلى فتح ذريعة تلك الفتنة العظمى، التي انتُهكت فيها حرمات بعضها أعظم من بعض:.

أولها: حرمة البلد الأمين، وبيت الله الحرام:

الذي قال فيه ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ * فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]؛ أي: ومن دخله فأمِّنوه.

وأقسم به ـ سبحانه ـ فقال ـ عزَّ مِنْ قائل ـ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: ١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: ٣].

ورفع شأنه، واختاره على سائر بلاد الأرض، وحرَّمه بنفسه ـ جل وعلا ـ، فقال: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١].

وعن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا ـ: قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1] الحديث.

---

(١) رواه البخاري، (٤/٤٠)، في الحج، باب لا ينفر صيد الحرم، وباب فضل الحرم، وفي الجنائز، والبيوع، والمغازي، ومسلم (١٣٥٣)، في الحج، باب تحريم مكة وصيدها ...، والنسائي (٥/٢٠٣، ٢٠٤)، في الحج، باب حرمة مكة، وباب تحريم القتال فيها، وباب النهي أن ينفر صيد الحرم.

وعن أبي شريح العدوي رضي الله عنه قال رسول الله - صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ فِيهَا دَمًا، وَلَا يَعْضِدَ فيها شجرةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقتالِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -، فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»[١].

وعن جابر رضي الله عنه قال رسول الله - صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ السِّلَاحَ بِمَكَّةَ»[٢].

ولقد توعد - تبارك وتعالى - كلَّ من يُلْحِدُ في حَرَمِهِ بأشد العذاب، فقال - جل وعلا -: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: قال رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ؛ لِيُهْرِيقَ دَمَهُ»[٣].

وقال ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لعبداللَّه بن الزبير - رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا -: «يا بن الزبير! إياك والإلحاد في حرم اللَّه - تعالى -، فإني سمعت رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - يقول: «إِنَّهُ سَيُلْحِدُ فِيهِ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، لَوْ تُوزَنُ ذُنُوبُهُ بِذُنُوبِ الثَّقَلَيْنِ لَرَجَحَتْ، فَلْتَنْظُرْ، لَا تَكُنْهُ»»[٤].

وقال - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -: «الْكَبَائِرُ تِسْعٌ» الحديث، وفي آخره:

(١) رواه البخاري، (١/١٧٦ - ١٧٧)، في العلم، باب ليبلغ الشاهد الغائب، وفي الحج، وفي المغازي، ومسلم، (١٣٥٤)، في الحج، باب تحريم مكة وصيدها، والترمذي، (٨٠٩)، في الحج، باب ما جاء في حرمة مكة، ورقم (١٤٠٦) في الديات، باب ما جاء في حكم دية القتيل في القصاص والعفو، والنسائي (٥/٢٠٥، ٢٠٦)، في المناسك، باب تحريم القتال في مكة.

(٢) رواه مسلم، (١٣٥٦)، في الحج، باب النهي عن حمل السلاح بمكة بلا حاجة.

(٣) رواه البخاري، (١٢/١٨٥ - ١٨٦)، في الديات، باب من طلب دم امرئ بغير حق.

(٤) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح». اهـ. (٣/٢٨٤)؛ وقال=

«وَاسْتِحْلَالُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، قِبْلَتِكُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا»، وفي رواية: «وَإِلْحَادٌ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ قِبْلَتِكُمْ» الحديث(١).

وثانيها: حرمة الشهر الحرام، الذي قال فيه ـ تعالى ـ:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ [التوبة: ٣٦]؛ هي ذو القَعدة، وذو الحِجة، والمحرم، ورجبُ مُضَر، ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾؛ أي: في هذه الأشهر خاصة لما لها من مزية، وإن كان الظلم غير جائز في غيرها، وقيل: «لا تظلموا فيهن أنفسكم بارتكاب الذنوب؛ لأن اللَّه إذا عَظَّم شيئًا من جهة واحدة، صارت له حرمة واحدة، وإذا عظَّمه من جهتين، صارت حرمته متعددة، فيضاعف فيه العقاب، كما يضاعف الثواب حسب نوع العمل»(٢).

وثالثها: حرمة دماء المسلمين:

عن ابن عمر ـ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا ـ: قال رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا»(٣).

وعن أبي الدرداء ﷺ قال رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «لَا يَزَالُ

= الشيخ/ أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (٦٢٠٠): «إسناده صحيح».

(١) رواه من حديث عبيدالله بن عمير عن أبيه ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أبو دواد، (٢٨٧٥)، في الوصايا، باب ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم، وفي سنده عبدالحميد بن سنان لم يوثِّقه غير ابن حبان، وقال البخاري: «في حديثه نظر»، وكذا رواه الطحاوي في «المشكل»، (١/٣٨٣)، والحاكم، (١/٥٩)، (٤/٢٥٩)، والبيهقي، (٣/٤٠٨ ـ ٤٠٩)، وأما رواية: «وَإِلْحَادٌ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ قِبْلَتِكُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا»، فأخرجها البيهقي من طريق أيوب عن طيسلة بن علي عن ابن عمر، وأيوب بن عتبة قال فيه الحافظ: «وهو ضعيف، وقد اخْتُلِفَ عليه فيه». اهـ. من «تلخيص الحبير»، (٢/١٠١)، وطيسلة بن علي ذكره ابن حبان في «الثقات»، (١/٩٩)، وبقية رجاله ثقات؛ وانظر: «إرواء الغليل»، (٣/١٥٤ ـ ١٥٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن»، للقرطبي، (٨/١٣٤)، وانظر: «حرمة أهل العلم» للمؤلف ص(٩).

(٣) رواه البخاري، (١٢/١٦٥)، في الديات، في فاتحته، وزاد بعده: وقال ابن عمر: «إن من وَرَطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفكَ الدم الحرام بغير حِلِّه».

المُؤْمِنُ مُعْنِقًا[١] صَالِحًا، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَّحَ[٢]»[٣].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ»[٤].

وفي رواية: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ».

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا فَاغْتَبَطَ[٥] بِقَتْلِهِ، لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا[٦]، وَلَا عَدْلًا»[٧].

وعن أبي بكرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «إِذَا شَهَرَ الْمُسْلِمُ عَلَى أَخِيهِ سِلَاحًا، فَلَا تَزَالُ مَلَائِكَةُ اللَّهِ تَلْعَنُهُ، حَتَّى يَشِيمَهُ[٨] عَنْهُ[٩]».

---

(١) المُعْنِق: الطويل العنق، الذي له سوابق في الخير، والإعناق: ضرب من السير سريع وسيع؛ والمراد به: خِفَّة الظهر من الآثام؛ يعني: أنه يسير سير المخفّ.

(٢) بَلَّح: أعيا، وانقطع.

(٣) رواه أبو داود، (٤٢٧٠)، في الفتن، باب في تعظيم قتل المؤمن، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، (٧٥٧٠).

(٤) رواه الترمذي، (١٣٩٥)، في الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن، والنسائي (٨٢/٧ ـ ٨٣)، في تحريم الدم، باب تعظيم الدم، وقال الترمذي: «وقد روي موقوفًا عليه، وهو أصح». اهـ. (١٦/٤)؛ وانظر: «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام»، ص (٢٥٣).
والرواية الثانية أخرجها ابن ماجه، (٢٦١٩)، من حديث البراء رضي الله عنه، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الجامع»، (١٦/٥)، (٤٩٥٤).

(٥) اغتبط: سُرَّ، وفرح، قال يحيى بن يحيى الغسَّاني عن قوله: «اغتبط بقتله»، قال: «الذين يقاتلون في الفتنة، فَيَقْتُل أحدُهم، فيرى أنه على هدى، لا يستغفر الله»؛ يعني: من ذلك، وذلك بخلاف ما إذا حزن لقتله، وندم عليه. وجاء في «معالم السنن»، للخطابي بلفظ: «فَاعْتَبَطَ»؛ أي: قتله ظلمًا، لا عن قصاص، يقال: عَبَطتُ الناقة واعتبطتها: إذا نحرتُها من غير داءٍ، أو آفة تكون بها؛ ؟وانظر: «جامع الأصول»، (١٠/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨)، وقيل: اعتبط: صَبَّ دمه صبًّا.

(٦) الصرف: النفل، وقيل: التوبة. والعدل: الفرض، وقيل: الفدية.

(٧) أخرجه أبو داود، (٤٢٧٠)، في الفتن، باب في تعظيم قتل المؤمن، وانظره في «صحيح أبي داود» (٨٠٤/٣) (٣٥٨٩).

(٨) أي: يخفيه، وذلك بوضعه في غِمْده.

(٩) عزاه في «الجامع الصغير» إلى البزار، وحسنه الألباني؛ انظر: «صحيح الجامع»، (٢٣٣/١)، (٦٤٨).

وعن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «يَجِيءُ الْمَقْتُولُ بِالْقَاتِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَاصِيَتُهُ وَرَأْسُهُ بِيَدِهِ، وَأَوْدَاجُهُ(١) تَشْخُبُ(٢) دَمًا، فَيَقُولُ: «يَا رَبِّ! سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي؟» حَتَّى يُدْنِيَهُ(٣) مِنَ الْعَرْشِ»(٤).

وعن نافع قال: «كان ابن عمر يسلِّم على الخشبية والخوارج وهم يقتتلون، وقال: من قال: حيَّ على الصلاة، أجبته، ومن قال: حيَّ على قتل أخيك المسلم، وأخذ ماله، فلا»(٥).

وعن عاصم «أن مروان قال لابن عمر ـ يعني: بعد موت يزيد: هلم يدك نبايعك، فإنك سيد العرب وابن سيدها، قال: كيف أصنع بأهل المشرق؟ قال: نضربهم حتى يبايعوا، قال: واللَّه ما أحب أنها دانت لي سبعين سنة، وأنه قُتِل في سيفي رجل واحد»(٦).

وقال سلام بن مسكين: سمعت الحسن يقول: «لما كان من أمر الناس ما كان زمن الفتنة، أتوا ابن عمر، فقالوا: أنت سيد الناس وابن سيدهم، والناس بك راضون، اخرج نبايعك، فقال: لا واللَّه لا يُهراق فيَّ محجمة من دم ولا في سببي ما كان فِيَّ روح»(٧).

وقال أبو نضرة: «دخل أبو سعيد يوم الحرة غارًا، فدخل عليه فيه رجل، ثم خرج، فقال لرجل من أهل الشام: أدلك على رجل تقتله؟ فلما انتهى الشاميُّ إلى باب الغار، وفي عنق أبي سعيد السيف؛ قال لأبي سعيد: اخرج، قال: لا أخرج، وإن تدخل

(١) عِرقان في العنق، إن قُطعا نزف حتى يموت.
(٢) تنزف بغزارة.
(٣) يُقَرِّبه.
(٤) أخرجه النسائي، في تحريم الدم، (٧/٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، (٧٨٨٧).
(٥) «سير أعلام النبلاء»، (٣/٢٢٨).
(٦) «السابق»، (٣/٢١٦).
(٧) «سير أعلام النبلاء»، (٣/٢٢٦).

أقتلك، فدخل الشاميُّ عليه، فوضع أبو سعيد السيف، وقال: بُؤْ بإثمي وإثمك وكنْ من أصحاب النار! قال: أنت أبو سعيد الخدري؟ قال: نعم، قال: فاستغفر لي، غفر اللَّه لك» (١).

وقال نافع: «أتى رجل ابن عمر، فقال: يا أبا عبدالرحمن، ما يحملك على أن تحج عامًا، وتعتمر عامًا، وتترك الجهاد؟ فقال: بُني الإسلام على خمس: إيمان باللَّه ورسوله، وصلاة الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت، فقال: يا أبا عبدالرحمن، ألا تسمع قوله:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، فقال: لأَن أعتبر(٢) بهذه الآية فلا أقاتل أحبُّ إليَّ من أن أعتبر(٣) بالآية التي يقول فيها: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، فقال: ألا ترى أن اللَّه يقول: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، قال: قد فعلنا على عهد رسول اللَّه ﷺ إذ كان الإسلام قليلًا، وكان الرجل يُفتن في دينه؛ إما أن يقتلوه، وإما أن يسترقُّوه، حتى كثر الإسلام، فلم تكن فتنة، قال: فلما رأى أنه لا يوافقه قال: فما قولك في عثمان وعليٍّ؟ قال: أما عثمان فكان اللَّه عفا عنه، وكرهتم أن يعفو اللَّه عنه، وأما عليٌّ فابنُ عَمِّ رسول اللَّه ﷺ وخَتَنُهُ(٤)، وأشار بيده: هذا بيتُه حيث ترون»(٥).

ورابعها: تحريم ترويع المسلم:

فقد قال ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا»(٦).

---

(١) «السابق»، (٣/١٧٠).

(٢) ، (٣) الظاهر أنها «أُعَيَّر» في الموضعين، والله أعلم.

(٤) الخَتَنُ: الصِّهر.

(٥) «السابق»، (٣/٢٢٨ ـ ٢٢٩).

(٦) رواه الإمام أحمد، (٥/٣٦٢)، وأبو داود (٥٠٠٤)، في الأدب، باب من يأخذ الشيء على المزاح، عن عبدالرحمن بن أبي ليلى، قال: حدثنا أصحاب محمد ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ «أنهم كانوا يسيرون مع رسول الله ﷺ، فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل معه، ففزع، فقال رسول الله ﷺ ... فذكره»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، (٧٥٣٤).

وخامسها: تعطيل ذكر الله والأذان والصلاة والطواف والسعي، وإحصار المعتمرين، في أشرف بيوت الله، وأحب بلاد الله إلى الله ورسوله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ[1].

لقد انتهكوا هذه الحرمات، ونسوا أن المهدي حق المهدي لا يستفتح ظهوره بمثل هذه الفتنة العظمى، ثم لم يبخل الشيطان بأن يستثمر الموقف إلى أقصى مدى ممكن، فإذا به ينفث في صدور ضحاياه ـ كعادته ـ أن المهدي قد فرَّ من خلال سرداب سفلي في الحرم، وأنه سيعود يومًا ما؛ ليملأ الأرض عدلًا وقسطًا بعد أن ملئت ظلمًا وجورًا، فانتظروه، تمامًا كما فعل من قبل مع الشيعة وأمثالهم.

لقد انقضت تلك المأساة التي أطلق عليها بحق «جريمة العصر»، ولكن الجرح لا يزال ينزف من قلوب المسلمين، وتتحسر أفئدة كل من عاصروا تلك المحنة، وعاينوا تلك الأحداث الأليمة، ولسان حال كل منهم يقول: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾[2] [مريم: ٢٣].

وصدق رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ـ: «وَلَنْ يَسْتَحِلَّ الْبَيْتَ إِلَّا أَهْلُهُ»، وقد كان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * * * *

(١)ويبلغ مجموع أوقات الأذان والإقامة والصلاة التي عُطِّلَتْ منذ بداية تلك الفتنة اثنين وثمانين وقت صلاة بدأت بظهر الثلاثاء الأول من المحرم ١٤٠٠هـ، وانتهت بعصر الخميس السابع عشر من المحرم نفسه.

(٢)انظر: «الجامع لأحكام القرآن»، للقرطبي (٢٦٩/٩)، (٩٢/١١).